# دقة استخدام الكلمة في الحديث النبوي الشريف

د. غالب محمد محمود الشاويش
كلية التربية للبنات ـ الأقسام الأدبية
الرياض

**مقدمة :**

جاء في لسان العرب : « قال أبو منصور : : والكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء ، وتقع على لفظة مؤلفة من جماعة حروف ، ذات معنى ، وتقع على قصيدة بكمالها ، وخطبة بأسرها »(١) .

فالكلمة المؤلفة من الحروف ، لها سر عجيب في تصوير المعنى فهي الظرف الحامل له .

وهذا ملحوظ في أحاديث الرسول ﷺ اذ نجد أن كل كلمة فيه ، قد استخدمت في مكانها المناسب ، سواء أكانت فعلا أم اسما .

ولا عجب في ذلك ، فالحديث النبوي الشريف ، متأثر بأسلوب القرآن الكريم ، فهو يأتي بعده من ناحية البلاغة والفصاحة .

وقد نظرت في أحاديث الرسول ﷺ حيث وجدت أن كل لفظ فيه ، له دلالة معينة ، تختلف عن دلالة اللفظ الآخر ، القريب له بالمعنى .

---

(١) لسان العرب ٥٢٤/١٢ مادة كلم .

كما لمست أيضا ، أن كل كلمة فيه تختار وفق السياق ، الذى يتحكم بفرض اللفظة المطلوبة ، لكى تؤدى المعنى على أكمل وجه ، وأبدع بيان •

ولذا جعلت بحثى فى مطلبين اثنين هما :

الأول : اختيار الكلمة دون مرادفها •

الثانى : مناسبة الكلمة للسياق •

وموضوع الترادف فى اللغة ، موضوع شائك ، فقد اختلف العلماء فيه قديما وحديثا • فمنهم من أنكر الترادف(٢) ، وهذا هو مذهب ابن الأعرابى ( — ٢٣١هـ ) ، وثعلب ( — ٢٩١هـ ) ، وأبى بكر محمد ابن القاسم الأنبارى ( — ٣٢٨هـ ) وابن فارس ( — ٣٩٠هـ ) ، وابن درستويه ( — ٣٤٧هـ ) ، وأبى هلال العسكرى ( — ٣٩٥هـ ) ، والراغب الأصفهانى ( — ٥٠٢هـ ) ، ومنهم من يذهب الى وجود الترادف فى اللغة ، ومن هؤلاء : ابن خالويه ( — ٣٧٠هـ ) ، وأبو بكر الزبيدى ( — ٣٧٩هـ ) ، والرمانى ( — ٣٨٤هـ ) ، وابن جنى ( — ٣٩٢هـ ) ، والباقلانى ( — ٤٠٣هـ ) ، وابن سيده ( — ٤٥٨هـ ) ، وحمزة الأصفهانى ( — ٤٦٠هـ ) ، والفيروز آبادى ( — ٨١٧هـ ) ، والسيوطى ( — ٩٩١هـ ) وغيرهم • كما ذهب الى هذا الرأى الأصوليون والفقهاء الذين جنحوا الى العقل والمنطق من أجل اثبات وقوع الترادف فى اللغة(٣) •

---

(٢) انظر الترادف فى اللغة:١٩٨ وما بعدها،وانظر الاعجاز البيانى للقرآن ٢١١ المؤلف والمؤلف والسنة ودار الطباعة •

(٣) السابق ٢١٦ ، ٢٢٠ •

اذن ، فالخلاف بين المذهبين قديم جدا ، حيث أثير حوله جدل العلماء ، فقد نقل السيوطى فى كتابه المزهر ما نصه :

« حكى الشيخ القاضى أبو بكر بن العربى بسنده عن أبى على الفارسى قال : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة وفيهم ابن خالويه • فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسما ، فتبسم أبو على وقال : ما أحفظ الا اسما واحدا ، وهو السيف • قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو على : هذه صفات ، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة »(٤) •

قال الشيخ عز الدين : « والحاصل أن من جعلها مترادفة ينظر الى اتحاد دلالتها على الذات ، ومن يمنع ، ينظر الى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهى تشبه المترادفة فى الذات ، والمتباينة فى الصفات »(٥) •

فالترادف اذا كان ناشئا عن تعدد لغات القبائل العربية ، فلا ينكره عاقل(٦) • وأما الترادف اذا كان ناشئا عن لغة واحدة ، بمعنى أن تتعدد الألفاظ ، لمعنى واحد ، فهذا الذى يكون عليه مدار خلاف العلماء ، •••• كما مر بنا سابقا •

ان خير من يحكم فى هذه القضية ــ قضية الترادف ــ هو القرآن الكريم ، لأنه هو كتاب العربية الأعظم •

---

(٤) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ١/٤٠٥ •

(٥) السابق ٤٠٥ •

(٦) انظر السابق ١/٤٠٥ •

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن في موضوع الترادف في اللغة : « والقرآن الكريم ، كتاب العربية الأكبر ، ومن الحق أن لا نأخذ في القضية برأي دون عرضها على الكتاب العربي المبين ، لأنه الذي يحسم ذلك الخلاف الذي طال •

وفيما اشتغل به على المدى الطويل من تخصص في الدراسات القرآنية ، شهد التتبع الاستقرائي لألفاظ القرآن في سياقها ، أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينة ، يؤديها لفظ آخر ، في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير ، عددا قل أو كثر من الألفاظ »(٧) •

وقد أحسنت الباحثة ، عندما جاءت بألفاظ من القرآن الكريم ظن بها الترادف مثل : الرؤيا والحلم ، آنس وأبصر ، النأي والبعد ، حلف وأقسم ، •••• الخ ، ثم بينت من خلال دراستها لهذه الأمثلة ، أنه لا وجود للترادف في القرآن الكريم(٨) •

وما ينطبق على القرآن الكريم ، ينطبق على الحديث النبوي الشريف ، حيث لا يمكن أن يحل لفظ مكان لفظ اذ أن لكل كلمة ، دلالتها الخاصة ، ومعناها الخاص الذي يناسب السياق •

ولننتقل الآن ، من مجال التنظير ، الى شواهد التطبيق حيث اخترت مجموعة من الأحاديث النبوية ، وذلك لدراسة الكلمة فيها من جانبين :

الأول : اختيار الكلمة دون مرادفها القريب لها بالمعنى •

والثاني : مناسبة الكلمة ، لسياق الحديث • واليك البيان والتوضيح •

---

(٧) الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق : ٢١٤ •
(٨) انظر السابق ٢١٥ وما بعدها •

## المبحث الأول
## اختيار الكلمة دون مرادفها
## عمل ـ فعل

**الحديث :**

عن أمير المؤمنين أبى حفص(١) ، عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء(٢) ما نوى • فمن كانت هجرته الى دنيا يصيبها ، أو الى امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه »(٣) •

لم اختار التعبير النبوى كلمة « الأعمال » دون « الأفعال » ؟ فهل هما بمعنى واحدا ؟ أم أنهما يختلفان من حيث المعنى ؟ •

قد يظن أنهما كلمتان مترادفتان وأنهما بمعنى واحد ولا فرق بين اللفظين •

ولكن واقع السياق ، يثبت غير ذلك ، اذ ان لكل منهما معنى خاصا ، يختلف عن الآخر •

أولا : فمن ناحية الزمن ، يختلف العمل عن الفعل ، من حيث المدة

---

(١) الحفص : الأسد وأبو حفص ، كنية لعمر بن الخطاب •

(٢) امرىء : انسان رجلا كان او امرأة •

(٣) صحيح البخارى ١/٣ باب بدء الوحى ، دار القلم ـ دمشق ـ بيروت ، وانظر صحيح مسلم ٦/٦٥٧ باب الامارة رقم ١٩٠٧ مع اختلاف فى الرواية ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان •

الزمنية(٤) ، اذ نلحظ أن عامل الزمن ممتد فى كلمة « العمل » دون لفظة « الفعل » .

ومعنى ذلك ، أن الأعمال التى يقوم بها الانسان لابد من التأنى والروية ، وطول البال ، وهذا مما يؤدى الى اجادة العمل واتقانه ، واحكام صنعه .

ومما يؤيد ذلك ، قول النبى ﷺ « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »(٥) .

وكذلك قوله عليه السلام : « ان الله يحب من العامل اذا عمل أن يحسن »(٦) .

فاتقان العمل يحتاج الى مدة زمنية أطول ، حتى يكون فى منتهى الجودة .

وهذا ملحوظ فى كتاب الله عز وجل ، كقوله تعالى : « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون »(٧) .

فالثمر لا يحصل عليه الانسان ، الا بعد كد وتعب وجهد .

---

(٤) انظر معترك الأقران ٣/٦٠٤ ، وانظر الاتقان فى علوم القرآن ١/٥٧ ، مكتبة البابى الحلبى ـ القاهرة ١٣٠٩هـ ـ ١٩/٣٩م .

(٥) كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق للامام عبد الرءوف المناوى ضمن كتاب الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير للسيوطى ١/٦١ ، دار الكتب العلمية .

(٦) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألبانى ٣/١٠٦ ، مكتبة المعارف ـ الرياض ط ٢ ، ١٤٠٧هـ أخرجه البيهقى فى الشعب

(٧) سورة يس آية ٣٥ .

فاقامة الجنات(٨) ، لابد لها من تعهد وخدمة ، وسقي وحـرث وما الى ذلك •

فهذه الأعمال تحتاج الى مدة زمنية أطول ، حتى يحصل الانسان على هـذه الأنواع من الثمار • ومن هنا نجد أن العمل يلحظ فيه الامتداد الزمنى •

فالأعمال اذن : مرافقة للانسان فهى ممتدة معه بزمن ، مادامت له بقية من حياة ، فاذا انتهى أجله ، انقطع عمله ، مصداقا لقول المصطفى ﷺ : « اذا مات الانسان انقطع عنه عمله الا من ثلاثة : الا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »(٩) • رواه مسلم •

والتكرار له أثر عظيم فى اتقان العمل • فمن المعروف أن الانسان لا يمكن أن يتقن العمل من أول مرة ، فلابد من محاولات عديدة حتى يصل الى درجة الجودة والاتقان •

وهـذا ملحوظ فى حياتنا اليومية ، عند الأدباء والكتاب ، والأطباء والمهندسين ، وأصحاب المهن ، •••• وغيرهم •

نقول هـذا : لأن البناء الثلاثى من الكلمة هو « عمل » • وهـذا البناء غالبا يوحى بالتكرار •

---

(٨) انظر تفسير التحرير والتنوير ٢٢/١٤ •

(٩) صحيح مسلم ٣/١٢٥٥ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ نشر رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ـ الرياض ط ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

يقول بدر الدين الزركشي : « وباب « فعل » لما تكرر »(١٠) .

وأما الفعل ، فعامل الزمن فيه يسير ، لأنه يحدث على وجه السرعة ، وهذا ملحوظ في كتاب الله عز وجل ، كقوله تعالى :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد »(١١) .

« كذلك نفعل بالمجرمين »(١٢) .

« وتبين لكم كيف فعلنا بهم »(١٣) .

فالتعبير القرآني يستخدم كلمة « فعل » ومشتقاتها . وهي تدل على أن الفعل حدث مرة واحدة ، وبسرعة زمنية فائقة .

وقد بين السيوطي ــ رحمه الله ــ السبب في استعمال كلمة « فعل » فقال : « لأنها اهلاكات وقعت من غير بطء »(١٤) .

وهذه الأفعال ، حيثما أطلقت في كلام الله سبحانه وتعالى ، فانها تحمل على الوعيد الشديد(١٥) .

ثانيا : من ناحية الاسناد :

أما من جانب الاسناد ، ففيه خصوص وعموم . وهذا مما يدل على دقة اختيار كلمة « الأعمال » في الحديث النبوي الشريف .

---

(١٠) البرهان في علوم القرآن ٤/٨٣ .

(١١) سورة الفجر آية ٦ .

(١٢) سورة المرسلات آية ١٨ .

(١٣) سورة ابراهيم آية ٤٥ .

(١٤) انظر معترك الاقران ٣/٦٠٤ ، وانظر الاتقان في علوم القرآن ٢/٣٠٨ ، وانظر البرهان في علوم القرآن ٤/٨٣ .

(١٥) انظر البرهان في علوم القرآن ٤/١٢١ .

فهذه الكلمة « الأعمال » تفيد معنى الخصوصية • وتفسير ذلك ، العمل فى الغالب لا يسند الا للانسان أو الشيطان ، ولم يرد منسوبا الى الحيوانات الا فى قول العرب(١٦) : « البقر العوامل »(١٧) •

ولكن هـذا الكلام الذى ورد عن العـرب « البقر العوامل » ، لا يمنعنا من القول : بأن العمل لا ينسب الا للانسان ، لكونه صـاحب عقل وفهم وفكر وخيـال •

وهذه الصفات ، من خصوصيات الانسان ، لا من خصوصيات غيره كالحيوان والنبات والجماد ، ••• الخ •

ومما يؤكد نسبة العمل للانسان لا لغيره ، هو تقاليب(١٨) الكلمة نفسها ، اذ ان من اشتقاق كلمة « عمل » ، « علم » • والعلم خاص بالانسان وحده ، دون غيره من المخلوقات • قال تعالى : « علم الانسان ما لم يعلم »(١٩) •

فالانسان عنده استعداد فطرى لتلقى العلوم ، ولديه القدرة على الدرس والتحليل والاستنتاج ، والاستفادة من سـنن الكون : ماديا ومعنـويا •

---

(١٦) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب ٣٦٠ مادة عمل •

(١٧) العوامل : الأرجل • قال الأزهرى عوامل الدابة • قوائمه واحدتها • عاملة •

العوامل : بقر الحرث والدياسة • والعوامل من البقر : هى التى يستقى عليها ويحرث ، وتستعمل فى الأشغال ، وهذا الحكم مطرد فى الابل •

(١٨) انظر الكليات : ٦١٦ •

(١٩) سورة العلق آية ٥ •

وأما اسناد العمل للشيطان ، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف ما يشير الى ذلك .

فعن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن النشرة(٣٠)، فقال : « هو من عمل الشيطان »(٢١) .

فالشيطان يعمل ولا يفعل ، فوسوسته للانسان مستمرة الى قيام الساعة ، فعامل الزمن في عمله ، ممتد ، مادام هناك بشر يدبون على الأرض .

وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك . قال تعالى : « .... الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس »(٢٢) .

وكذلك ورد العمل ، مسندا الى الشيطان في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »(٢٣) .

وقوله تعالى : « قال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضل مبين »(٢٤) .

---

(٢٠) النشرة : نوع من العلاج والرقية ، يعالج بها المسحور ، لأنهم ينشرون عن المسحور بسحر واستخدامات شيطانية .

(٢١) سنن أبي داود ٢/٣٩٩ ، دراسة كمال يوسف الحوت ـ دار الجنان ـ بيروت ٤/٢٣٥ ، ط ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م .

(٢٢) سورة الناس الآيتان ٥ ، ٦ .

(٢٣) سورة المائدة آية ٩٠ .

(٢٤) سورة القصص آية ١٥ .

فالشيطان يعمل ولا يفعل ، لأن العمل يناسبه : زمنا ، وتكرارا ، ومبنى .

فمن ناحية الزمن ، فالشيطان مستمر فى وسوسته للانسان مدى الحياة .

ومن ناحية التكرار ، فهو يكرر وساوسه للانسان . قال تعالى : « يوسوس فى صدور الناس »(٢٥) .

فصفة الفعل المضارع « يوسوس » تفيد التجدد والاستمرار .

ومن ناحية المبنى — فقد مر بنا سابقا — أن من اشتقاق « عمل » « علم » فالشيطان يوسوس للانسان عن علم ودراية ، شأنه شأن الشياطين من الانس .

قال قتادة — رحمه الله — : « ان من الناس شياطين ، ومن الجن شياطين ، فتعوذوا بالله من شياطين الانس والجن »(٢٦) .

وأما الفعل ففيه عموم من ناحية الاسناد . فقد جاءت الأحاديث النبوية بالفعل مسندا الى الذات الالهية . كما أنه جاء مسندا الى الانسان ، والحيوان ، والطيور والنبات والجماد .

فالفعل اذا ، أعم من العمل من ناحية الاسناد .

فأما اسناده الذات الالهية ، فكقوله عليه السلام : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف . وفى كل خير . احرص على

---

(٢٥) سورة الناس آية ٥ .

(٢٦) المحرر الوجيز ٥/٥٤٠ .

ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز • فان أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا • ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل • فان لو تفتح عمل الشيطان »(٢٧) •

وأما اسناد الفعل للانسان ، فكقوله عليه السلام للفريعة بنت مالك عندما جاء نعى زوجها حيث استأذنته أن تلحق بدار أهلها فقال لهـا : « فافعلى ان شئت »(٢٨) •

وأما اسناده للحيوان ، فكقول جابر بن عبد الله رضى الله عنه : كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر ، وكنت على جمل ، فقال : فى آخـر الناس ؟ قلت : أعيا بعيرى •

فأخذ بذنبه ، ثم زجره ، فان كنت انما فى أول الناس ، يهمنى رأسه ، فلما دنونا من المدينة ، قال : « ما فعل الجمل بعنيه » ، قلت لا بل هو لك يا رسول الله ، قال : « لا بل بعنيه » •••• »(٢٩) •

فالرسول ﷺ ، أسند الفعل الى الجمل فقال : « ما فعل الجمل » ولم يقل ما عمل الجمل •

وأما اسناده للطيـور ، فكقول الرسول ﷺ(٣٠) : « أبا عمير

---

(٢٧) سنن ابن ماجة ١/١٧ •

(٢٨) صحيح سنن ابن ماجة ١/٣٤٥ ، تحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ط ٢ ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م ، المكتب الاسلامى ـ بيروت •

(٢٩) سنن النسائى ٧/٢٩٨ ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت لبنان

(٣٠) صحيح مسـلم بشرح النووى ١٤/١٢٨ ـ مكتبة الرياض الحـديثة •

ما فعل النغير »(٣١) •

فهنا ، نجد أن الرسول ﷺ قد أسند الفعل ـ وليس العمل ـ للطائر •

وأما اسناده للنبات والجماد ، فكقوله ﷺ على لسان الرجل المقيد « ما فعلت عين زغر ؟ قالوا : خيرا • يسقون منها زروعهم • ويستقون منها لسقيتهم • قال : فما فعل نخل بين عمان وبيسان ؟ قالوا : يطعم ثمره كل عام • قال : فما فعلت بحيرة الطبرية ؟ قالوا : تدفق جنباتها من كثرة الماء •••• »(٣٢) •

فأسند الفعل الى « العين » و « النخل » و « البحيرة » ، كما هو واضح فى الحديث •

وهذا ملحوظ فى كتاب الله عز وجل ، حيث جاء الفعل(٣٣) مسندا الى الذات الالهية ، كما أنه جاء مسندا الى الملائكة والانسان ، والحيوان والطيور والجماد •

فأما اسناده للذات الالهية ، فكقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل »(٣٤) •

---

(٣١) النغير : بضم النون تصغير النغر بضمها وفتح الغين ، وهو طائر صغير جمعة نغران •

(٣٢) سنن ابن ماجة ٢/٣٩٧ ـ ٣٩٨ تحقيق : محمد مصطفى الاعظمى •

(٣٣) يسند العمل الى الصفة الالهية كقوله تعالى : « أو لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاما فهم لها مالكون » يس : ٧١ •

(٣٤) سورة الفيل : آية ١ •

وأما اسناده للملائكة ، فكقوله تعالى : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »(٣٥) .

وأما اسناده للانسان ، فكقوله تعالى : « قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ، اذ أنتم جاهلون »(٣٦) .

وأما إسناده للجماد ، فكقوله تعالى : « قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون »(٣٧) .

وأما اسناده للحيوانات والطيور ، فكقوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون »(٣٨) .

ومن هنا تتجلى لنا فصاحة الرسول ﷺ فى اختيار كلمة « الأعمال » دون « الأفعال » ، لأن المقصود بالحديث « انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى » . هو الانسان نفسه .

فهو المأمور شرعا بالتكاليف الشرعية من صلاة وزكاة وصوم وحج ، ومن معاملات وآداب وأخلاق ، ... الخ .

وأما ما تبقى من مخلوقات الله — عز وجل — فهى ليست مكلفة بذلك ، بل أنها تسير ، وفق نظام معين يتناسب مع طبيعتها وفطرتها

---

(٣٥) سورة التحريم آية ٦ .
(٣٦) سورة يوسف آية ٨٩ .
(٣٧) سورة الانبياء آية ٦٣ .
(٣٨) سورة النور آية ٤١ .

وغريزتها • وصدق الله العظيم الذى يقول : « وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم »(٣٩) •

ثالثا : من ناحية الكلمة :

ولو نظرنا فى بناء الفعل ( عمل ) ، لوجدناه على وزن « فعل » مثل : تعب ، نصب • فهو يفيد معنى المشقة والجهد •

جاء فى تاج العروس ما نصه : « وقال بعض من أئمة اللغة والأصول : ان العمل أخص من الفعل ، لأنه فعل بنوع مشقة • قالوا : ولذا لا ينسب الى الله تعالى »(٤٠) •

فالعمل خاص بالانسان وحده ، فهو يحتاج منه الى جهد ومشقة • ولذا يشعر الانسان بالتعب والنصب ، عندما يقوم بعمل جسدى ، أو فكرى ، أو بكليهما معا • بينما الحيوانات ، تتعب بجسدها لا بفكرها • ومن هنا صح أن نقول : يفعل الحيوان ، ولا يصح أن نقول : يعمل الحيوان •

وأما بناء الفعل « فعل » ، فهو على وزن « فعل » ، وهذه المادة فى الغالب ، تدل على الحركة والحيوية(٤١) ، مثل : درس ، أكل ، ضرب •••• الخ •

فكون الفعل يسند الى الذات الالهية ، فهو فى حقه عز وجل

---

(٣٩) سورة الاسراء آية ٤٤ •

(٤٠) تاج العروس ٨/٣٤١ •

(٤١) انظر الحقول الدلالية والصرفية للأفعال العربية : ٦٧ د• سليمان فياض •

لا يفتقد الى نوع المشقة • فالله جل شأنه ، يتعالى عن صفات البشر ، فهو يقول ويفعل بدون مشقة ، ولا نقول : يعمل •

وكذلك كون « الفعل » يسند الى الملائكة ، فهى لا تعانى من التعب والنصب ، مصداقا لقوله تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون »(٤٢) •

فهم يفعلون ما يؤمرون به فى طرفة عين •

وأما بقية مخلوقات الله عز وجل ، كالحيوانات ، والطيور ، والنبات والجماد ، وما أشبه ذلك ، فانها تفعل ولا تعمل • والذى يلحظ عليها • أنها تتحمل المشاق والتعب • فهى تطيق من المشقة ، ما لا يطيقه الانسان •

كما يلحظ أيضا أن مادة الكلمة « عمل » تفيد معنى الصفة الاجتماعية النشاطية(٤٣) • ومما يؤيد هذا الكلام ، قول ابن منظور : العمل بمعنى المهنة(٤٤) •

فالمهنة صفة لازمة ، تقوم على النشاط الاجتماعي سواء أكانت حسنة أم قبيحة • مثل : ربح ، خسر ، لعب أى أصبح لاعبا ، حيث امتهن هذه الصفة ، أو الصنعة •

ومن هنا حسن اذا أردنا أن نستفسر عن انسان تقدم لعمل أو لخطبة فتاة مثلا ، أن نقول : ماذا يعمل ؟ وأين يعمل ؟ ولا نقول : ماذا

---

(٤٢) سورة النحل آية ٥٠ •

(٤٣) انظر الحقول الدلالية والصرفية للأفعال العربية : ٣٠ •

(٤٤) انظر لسان العرب : مادة عمل ١١/٤٧٤ ، وانظر تاج العروس ٨/٣٤ •

يفعل ؟ وأين يفعل ؟ .

بينما مادة « فعل » مثل : درس ، أكل ، ركض ، مشى ، سعى ، ذهب ، رحل ، تدل على الحركة والحيوية ـ كما ذكرنا سابقا ـ فهذه كلها صفات لا تدل على امتهان الصفة ، كما هو الشأن فى مادة « عمل » .

وهكذا نجد أن اختيار كلمة « الأعمال » فى الحديث النبوى الشريف ، كانت لسر عجيب ، وحكمة بالغة .

فالانسان ليس ملاكا يعيش على الأرض ، لأنه لن يستطيع أن يصل الى مرتبة الملائكة ، وكذلك هو ليس بهيمة ، تسيره الغرائز ، كيفما شاءت فى جميع الأوقات .

فالملائكة تفعل ، والبهائم كذلك تفعل ، بينما الانسان يعمل . فالعمل ، يشمل الأقوال ، والأفعال ، وما يخطر فى بال الانسان وهو ما يسمى « بالهم » . فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : اذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فان عملها كتبتها عشر حسنات الى سبعمائة ضعف . واذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه . فان عملها . كتبتها سيئة واحدة »(٤٥) .

فالأعمال(٤٦) اما أن تكون مالية ، كالصدقة والعتق ، واما أن تكون بدنية ، كالصلاة والصيام ، واما أن تكون بدنية مالية ، كالحج والجهاد ، واما أن تكون قلبية ، كالصبر ، وكظم الغيظ وما الى ذلك .

---

(٤٥) صحيح مسلم ١/١١٧ كتاب الايمان ـ نشر ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ـ الرياض ـ ط ١ ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

(٤٦) انظر معترك الاقران ٢/٢١٩ .

وهذه الأعمال أيضا ، اما أن تكون معنوية : كالحب ، والبغض والكره ، والحسد ، والحقد ، والنميمة ...

واما أن تكون حسية : كالحج والصلاة والجهاد ، وكذلك أعمال الخير أو الشر ، بشتى صنوفها وأنواعها .

وبقدر ما يكون الانسان عمله موافقا للشرع ، مخلصا فيه ، فانه يقرب الى درجة الكمال الأعلى ، فينال رضا الله ونعيمه .

ولكنه اذا عمل عكس ذلك ، فانه يصل الى مرتبة الكمال الأدنى ، وهي درجة الحياة البهيمية ، التى تسير وفق الغرائز والفطرة .

ومن الجدير بالذكر(٤٧) ، أن النصوص القرآنية أو الحديثية أو ما جاء من كلام العرب ، لم تستعمل لفظ « العمل » ، لفعل الله أو لفعل الحيوان . والسبب فى ذلك ، أن الله يفعل ولا يعمل ، فقوله وفعله واحد . وكذلك الحيوان فانه يفعل ولا يعمل ، فقوله وفعله واحد . بينما الانسان ، فهو صاحب عمل مؤلف من قول وفعل ، فاذا انفصل قول الانسان عن فعله ، فانه يكون قد فقد صفة العمل التى جعلته انسانا ، مصداقا لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »(٤٨) .

فالفعل اذن(٤٩) اذا نسب للانسان ، فانه يكون لسببين : اما لتخلقه بأخلاق المثل الأعلى ، — وهو فى هذه الحالة ، يكون قريبا من

---

(٤٧) انظر جدلية الحرف العربى وفيزيائية الفكر والمادة ٢٧٩ .

(٤٨) سورة الصف آية ٣ .

(٤٩) انظر جدلية الحرف العربى وفيزيائية الفكر والمادة ١٧٠ .

درجة الملائكة ــ واما لانحطاطه الى مرتبة الحيوان ، بل يكون الحيوان أفضل منه فى هــذه الحالة ، اذ ينطبق عليه قول الله عز وجل : « ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا »(٥٠) .

فصفة العمل اذا ، هى التى تميز الانسان عن غيره ، واذا اختيرت كلمة الأعمال دون الأفعال فى حديث رسول الله ﷺ .

ومما يجب ملاحظته ، أن كلمة « الأعمال » ، جاءت فى حــديث الرسول ﷺ معرفة ( بأل ) الجنسية . وهــذا التعريف(٥١) اذا دخل على جمع التكسير الذى يكون على وزن ( أفعال ) فانه يفيد الكثرة .

ومعنى ذلك أن الأعمال : قليلها وكثيرها ، سواء أكانت حســية أو معنوية ، أو ما يخطر فى القلب ، كل ذلك ، يحتاج الى نية .

فالنية لا تنفك عن الأعمال بأى حال من الأحوال ، فهى ملاصــقة للعمل ، كالتصاق الثوب بالجسد . ندرك هــذا المعنى من دخول حرف الجر « الباء » على النيات ، فى قوله عليه الســلام : « انما الأعمال بالنيات » فالباء تفيد معنى الالصــاق كما يقول النحويون(٥٢) .... بينما الفعل ، لا يحتاج الى نيــة ، وهــذا فارق جوهــرى بين العمل والفعــل .

وقد أسهم أسلوب القصر ، فى قوله عليه السلام : « انما الأعمال بالنيات » فى توضيح المعنى المراد . اذ يوحى هــذا التعبــير ، بأن

---

(٥٠) سورة الفرقان آية ٤٤ .

(٥١) انظر جامع الدروس العربية ٢/٢٧ .

(٥٢) انظر مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ١/١٠٦ .

الأعمال المقبولة ، عند الله سبحانه وتعالى ، هى ما كانت مقصورة على نيـــة •

والنية قد تكون حسنة ، وهــذا ما يؤجر الانسان عليه ، وقد تكون سيئة ، وهــذا مما يؤاخذ الانسان عليــه •

فالعمل اذن ، مهم فى حياة الانسان • ولولا العمل ، لمــا خلق الله الانسان • قال تعالى : «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» (٥٣)•

فالعبادة تشــمل كل أنواع العمل : من حسى ومعنوى ، أو من ظاهر وباطن •

فجميع تكاليف الله لعباده ، انما يريد منها صلاحهم العــاجل فى الدنيا ، والآجل فى الآخرة •

وهكذا نجد أن الحياة تقوم على أساس العمل • ولو توقف العالم عن هــذا العمل نهائيا ، لأصبحت الحياة فيــه جحيما لا تطاق •

---

(٥٣) سورة الذاريات آية ٥٦ •

## الجهـاد ، القتـال ، الغزو ، الحـرب

هـذه الألفاظ شائعة فى الأحاديث النبوية الشريفة ، فكل كلمـة منها ، لها مدلول خاص ، يفهم من سياق الكلام •

ولو استبدلنا كلمة مكان كلمة أخـرى ، لتغـير المعنى ، واختلف المقصود •

والناظر فى أحاديث الرسول ﷺ يجد أن كلمة الجهاد ، تأخـذ جانبا من ألفاظ الحديث النبوى ، ثم تليها فى الاستعمال على الترتيب كلمات : القتال ، ثم الغزو ، ثم الحرب • وقد وردت الأخـيرة ، على نطاق ضيق من حيث الاستعمال •

ولمزيد من الوقوف ، على الفروق الدقيقة ، بين الألفاظ السابقة ، من حيث المعنى ، يحسن دراسـة بعـض النصوص الحديثية ، لنتبين من خلالها ، متى تستعمل الكلمة فى مكانها المنـاسب ، لتؤدى المعنى المراد ، واليك البيـان •

### أولا ـ الجهـــاد :

كلمة الجهاد فى اللغة ، مأخوذة من الفعل « جهـد » • ويقال : الجهد ، والجهد : بمعنى الطاقة • وقيل : الجهد : المشقة ، والجهد : الطـاقة(١) •

وقال ابن الأثير : « قد تكرر لفظ الجهـد ، والجهد فى الحديث

---

(١) انظر لسان العرب ٣/١٣٣ مادة جهد •

كثيرا • وهو بالضم : الوسع والطاقة ، وبالفتح : المشقة • وقيل : المبالغة والغاية • وقيل : هما لغتان فى الوسع والطاقة »(٢) •

وقد انصرف معنى الجهاد الى محاربة الكفار ، وهو المبالغة فى حربهم ، واستفراغ أقصى درجات الوسع والطاقة من قول وفعل ، وعمل ، وذلك للنيل منهم ، والضرب على أيديهم(٣) •

هذا يتطابق مع قول الله عز وجل : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ••• »(٤) •

فالقوة تشمل الناحيتين : المادية والمعنوية ، لما فى ذلك من بذل الوسع والطاقة ، وتحمل المشقة •

ولو تتبعنا جملة من الأحاديث النبوية ، التى وردت فيها كلمة « الجهاد » ومشتقاتها ، لوجدناها كثيرة جدا ، ولكنها مع هذه الكثرة ، فانها تعطى مفهوما واحدا ، للمعنى المراد من كلمة الجهاد •

فقد ذهب أغلب علماء المسلمين(٥) ، ومنهم شهاب الدين القسطلانى ، الى أن الجهاد فى مفهوم الشرع ، هو : « قتال الكفار لنصرة الاسلام ، واعلاء كلمة الله ، ويطلق أيضا على جهاد النفس والشيطان ، وهو من أعظم الجهاد »(٦) •

---

(٢) النهاية فى غريب الحديث والاثر لابن الأثير : ١/٣٢٠ ، وانظر لسان العرب ٣/١٣٣ مادة : جهد •

(٣) انظر لسان العرب ٣/٣١٩ •

(٤) سورة الأنفال آية ٦٠ •

(٥) انظر الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية ١/٤٤ •

(٦) ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى للقسطلانى ٥/٣١، دار احياء التراث العربى •

وهذا الرأى يراه الصحابى الجليل ، سعد بن أبى وقاص ، حيث حصر الجهاد ، فى مقاتلة الكفار . والدليل على ذلك ، ما أورده الطبرانى . « عن ابن سيرين قال : قيل لسعد بن أبى وقاص : ألا تقاتل ؟ فانك من أهل الشورى ، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك ؟ فقال : لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عينان ولسان وشفتان ، يعرف المؤمن من الكافر ، فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد »(٧) .

وهناك تعريف شامل للجهاد ، أشار اليه شيخ الاسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ حيث يقول : « الجهاد حقيقته الاجتهاد فى حصول ما يحبه الله من الايمان ، والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغضه الله ، من الكفر والفسوق والعصيان »(٨) .

وقال فى موضع آخر : « والجهاد : هو بذل الوسع ــ وهو كل ما يملك من القدرة ــ فى حصول محبوب الحق ، ودفع ما يكرهه الحق . فاذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد ، كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله فى قلبه »(٩) .

فالجهاد فى ضوء هذا التعريف ، يشمل جميع الطاعات التى يؤديها المسلم من خلال الشرع ، وكذلك يشمل اجتناب جميع النواهى التى نهى عنها الله سبحانه وتعالى ، بما فى ذلك اجتهاده فى قتال الكفار من أجل اعلاء كلمة الله .

---

(٧) المعجم الكبير للطبرانى ١/١٤٤ ، مكتبة ابن تيمية ــ القاهرة رقم ٣٢٢ ، وانظر مجمع الزوائد ٧/٣٠٢ ، مؤسسة المعارف ــ بيروت ــ لبنان .

(٨) العبودية لابن تيمية : ١٠٤ ، المكتب الاسلامى .

(٩) السابق : ١٠٦ .

ولمثل هذا المعنى ، ذهب ابن قيم الجوزية فى كتابه زاد المعاد ، حيث يقول : « والتحقيق أن جنس الجهاد ، فرض عين : اما بالقلب ، واما باللسان ، واما بالمال ، واما باليد ، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع »(١٠) .

ونظرة فاحصة فى الأحاديث النبوية الشريفة ، نرى أن التعبير النبوى يؤثر كلمة « الجهاد » وما يشتق منها ، حينما يكون الجهاد مع الفئات المخالفة للمسلمين فى المعتقد .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، نأخذ منها هذا الحديث على سبيل المثال :

ـ عن أنس رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم ، وأنفسكم ، وألسنتكم »(١١) . رواه أبو داود باسناد صحيح .

فالحديث يشير الى مجاهدة المشركين . وهذا الصنف من الناس ، مخالف للمسلمين من حيث المعتقد . ولذا كان الاختيار لكلمة « جاهدوا » دون غيرها من الكلمات المرادفة لها بالمعنى .

وكذلك يفهم من هذا الحديث ، أن كلمة « جاهدوا » عامة ، بمعنى أنها : تشمل الجهاد بالأموال ، والأنفس ، والألسنة على الترتيب الذى ذكر فى الحديث .

---

(١٠) زاد المعاد ٣/٧٢ .

(١١) سنن ابى داود ٣/١٦ برقم ٢٥٠٤ ، وسنن النسائى ٦/٧ بلفظ « وأيديكم » بدل « وانفسكم » .

وتقديم الأموال على الأنفس ، قد يعطى دلالات متعددة ، وكلها محتملة الوقوع •

فمن ذلك : أنه قد يوحى بالضائقة المالية ، التى كان يعانى منها المسلمون آنذاك •

أو أنه يوحى بشح الأنفس ، وتعلق النفوس بالمال ، مما جعل الرسول ﷺ يقدم المال على النفس حتى يشحذ هممهم ، وينبههم الى فضل بذل المال فى الجهاد •

أو أن تقديم المال يوحى بأن هناك أشخاصا من المسلمين عندهم أموال كثيرة ، ولكنهم لا يستطيعون الجهاد بأنفسهم ، بسبب عجزهم ، وكبرهم ، أو بسبب مرضهم ، فأراد النبى ﷺ أن يجعل لهم نصيبا فى الجهاد ، بل أراد أن تكون لهم أولوية السبق فيه ، بفضل أموالهم •

وهذا مما يرفع من معنوياتهم ، اذ يجعلهم يتسابقون فى بذل الأموال ، لأنه أعظم من بذل النفوس ، ولذلك قدمه الرسول ﷺ فى حديثه السابق •

أو أن التقديم ، يوحى بأن المال يسبق جهاد النفس من الناحية الزمانية والطبيعية • فالاعداد للجهاد ، يحتاج أولا الى جمع المال من أجل التدريب والتموين ، وشراء العدة والعتاد ، وأنواع السلاح ، وما الى ذلك • ولذا قدم المال على جهاد النفس لهذا الاعتبار « الخصوص » •

وجميع هذه الايحاءات واردة وقوعها فى المجتمع • ولذا كان الجميع ، مقصودا بهذا التقديم •

ومما تمتاز به كلمة الجهاد ، أنها غالبا لا تأتى فى الحديث النبوى إلا مقرونة بعبارة « فى سبيل الله » .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها :

ـ قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : سألت رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة على ميقاتها » قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »(١٢) .

ـ وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قيل يا رسول الله، أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله » ثم من ؟ قال : « مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ، ويدع الناس من شره »(١٣) .

وهذه العبارة « فى سبيل الله » ، مقتبسة من القرآن الكريم ، وذلك مما يدل على تأثر النبى ﷺ بأسلوب القرآن الكريم .

قال تعالى : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »(١٤) .

ويلحظ فى الآية ، تقديم الأموال على الأنفس ، كما بينا فى الحديث المتقدم .

---

(١٢) صحيح البخارى ٣/١٠٢٥ باب فضل الجهاد ، دار القلم ـ دمشق .

(١٣) صحيح البخارى ٣/١٠٢٦ .

(١٤) سورة الصف آية ١١ .

وكذلك تمتاز كلمة الجهاد عن غيرها من الكلمات القريبة لها بالمعنى ، ببعديها الزمانى والمكانى • ومعنى ذلك أن الجهاد ، ماض الى يوم القيامة ، فلا يحده زمان ولا مكان ، فان ضيق عليه فى بلد ، يفتح الله له فى بلد آخر •

وقد أشار رسول الله ﷺ الى ذلك ، حيث قال : « ثلاث من أصل الايمان : الكف عمن قال لا اله الا الله ، ولا نكفره بذنب ولا نخرجه من الاسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثنى الله الى أن يقاتل آخر أمتى الدجال ، لا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل ، والايمان بالأقدار »(١٥) •

نخلص من هذا ، الى أن كلمة « الجهاد » ، وما يشتق منها ، تستخدم فى الحديث النبوى الشريف ، عندما يكون القتال بين المسلمين والكفار ، فالاختلاف العقدى ، ظاهر بين الفريقين ، كما نرى •

وأمر آخر ، أن الجهاد غالبا ما يكون مقرونا بعبارة « فى سبيل الله » ، حتى أصبحت هذه العبارة من مستلزمات الجهاد • وربما يكون سر اقترانها بالجهاد حينا ، وبالقتال حينا آخر هو شد انتباه المؤمنين الى أن الجهاد أو القتال ، ينبغى أن يكون الهدف منهما ، هو اعلاء كلمة الله لا غير •

وان لم يكونا كذلك ، فلا يسميان جهادا أو قتالا فى سبيل الله ، وانما يسمى حربا أو ثورة أو صراعا ، ••• الخ ، لأن الأهداف الدنيوية ، والأهواء الشخصية ، هى المسيطرة على نشوب القتال •

---

(١٥) سنن أبى داود ٢/٢٢ كتاب الجهاد ، دار الجنان ـ بيروت ـ لبنان •

كما أن كلمة « الجهاد » عامة : تشمل فعل الطاعات جميعها ، ومنها مجاهدة الكفار • فالجهاد ماض الى يوم القيامة ، متخطيا حدود الزمان والمكان ، وكذلك تشمل اجتناب جميع ما نهى عنه الشارع • فالسياق في الحديث النبوى الشريف يختار كلمة « الجهاد » ، اذا كان المعنى يطلب ذلك • فلكل معنى لفظ يناسبه ، ويعاونه فى تأدية المقصود من الكلام على أفضل وجه •

**ثانيا ـ القتال :**

جاء فى لسان العرب : القتال : هو المقاتلة والمحاربة بين اثنين(١٦) •

وهذه الكلمة ، مأخوذة من الفعل : قتل • نقول : قتله ويقتله قتلا ، وتقتالا : أزال روحه عن جسده(١٧) •

والفرق بينه وبين الموت ، هو أن القتل يكون بفعل شخص ، بينما الموت يكون بفوت الحياة(١٨) •

وقد وردت كلمة « القتال » ، وما يشتق منها فى التعبير النبوى الشريف ، فمن ذلك :

١ ـ عن البراء رضى الله عنه يقول رجل مقنع بالحديد • فقال : يا رسول الله ! : أقاتل وأسلم • قال : « أسلم ثم قاتل » • فأسلم ،

---

(١٦) لسان العرب ٥٤٩/١١ مادة : قتل •

(١٧) انظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٢٣٨/٤

(١٨) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب ٤٠٧ •

ثم قاتل ، فقتل • فقـال رسول الله ﷺ : « عمل قليـلا ، وأجـر كثيرا »(١٩) رواه البخارى •

٢ ــ وجاء رجل الى النبى ﷺ فقـال : الرجل يقـاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »(٢٠) •

٣ ــ وعن محمد بن مسلمة قال : قال رسول الله ﷺ : « اذا رأيت الناس يقتتلون على الدنيا ، فاعمـد بسيفك على أعظم صـخرة فى الحرة ، فاضربه بها ، حتى ينكسر ، ثم اجلس فى بيتك ، حتى تأتيـك يد خاطئة ، أو منية قاضـية »(٢١) •

٤ ــ وعن نافع عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهم ــ أن رسول الله ﷺ قال : « تقاتلون اليهود ، حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر ، فيقول : يا عبد الله ، هـذا يهودى ورائى فاقتله »(٢٢) •

ففى الحديث الأول ، نجد حوارا بين رجـل يقول للنبى ﷺ : « أقاتل وأسلم » ، والرسـول ﷺ الذى يرد عليـه قائلا : أسـلم ثم قاتل » •

وهـذا توجيه حكيم من رسول الله ﷺ للرجل المقنع بالحديد ،

---

(١٩) صحيح البخارى ٣/١٠٣٤ ، دار القلم ــ دمشق ــ بيروت •
(٢٠) السـابق ٣/١٠٣٤ •
(٢١) مجمع الزوائد ٧/٣٠٣ ــ ٣٠٤ ، رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات •
(٢٢) صحيح البخارى ٣/١٠٧ ، دار القلم ــ دمشق ــ بيروت •

فهو على أهبة الاستعداد للقتال ، لا يحجزه عنه الا هـذا السؤال ، أن يريد أن يقاتل على بصيرة من أمره ، لأن الرؤية الحقة ، كانت عنـده غير واضـحة •

والذى يسترعى الانتباه فى هـذا الحديث ، أن الرسول ﷺ قدم الاسلام على القتال ، لأنه هو أصل الأعمال • فلا قيمة للقتـال ، ان لم يكن يصدر عن ايمان صـحيح •

والقتال هنا ، حصل بين نموذجين من البشر : أحدهما مسـلم والآخـر كافر • وبينهما اختلاف فى العقيدة • ففى مثل هذا الموطن ، يختار التعبير النبوى الشريف لفظة القتال •

وهو من هـذا الجانب ، ( أى القتال ) ، يتفق مع الجهاد ، الذى يكون القتال فيـه محاربة الكفار •

كما يتفق أيضا معه من ناحية الهـدف • فالقتال يكون فى بعض الأحيان فى سبيل الله ، وذلك اذا وقع بين طائفتين : احداهما مسلمة ، والأخرى كافرة •

والحديث الثانى ، يوضح ذلك ، وهو قوله ـ ﷺ ـ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »(٢٣) •

هـذا الحديث جاء على شكل حوار • فقد ذكر الرجل السائل ، أن هناك أهدافا متعددة للقتال ، حيث حصرها فى ثلاثة وهى :

١ ـ « الرجل يقاتل للمغنم » • وجمعها مغانم • ويقصد بذلك

---

(٢٣) السـابق ٣/١٠٧ •

ما أصيب من أموال المشركين ، حيث أرجف عليه المسلمون بخيلهم وركابهم(٢٤) .

والمغانم ، هى الأموال ، وهذا أمر حسى ، يشاهد ويرى .

فالأعرابى بدأ بذكره أولا ، وذلك لما للمال من أهمية عظمى فى نفوس المقاتلين . فهو هدف قريب ودافع خسيس .

٢ ــ « والرجل يقاتل للذكر » .

وهذا الصنف من الناس ، أرقى هدفا ، وأعلى همة ، من النوع الأول ، لأنه يقاتل من أجل « الذكر » . وهو أمر معنوى ، يتعلق بشخصية المقاتل . فهو يحب الصيت ، والثناء ، وذكر الشرف . وكلها صفات معنوية ، يحبها المقاتل ، ويضحى من أجلها . والصيت يكون فى الخير ، كما يكون فى الشر(٢٥) .

٣ ــ « والرجل يقاتل ليرى مكانه » . أى منزلته وموقعه بين القوم(٢٦) .

ولا شك فى أن بعد المنزلة والمكانة بين الناس من الأمور المعنوية التى يحرص عليها المقاتل ، لأنها تتمشى مع طبيعة الفطرة الانسانية . فهو يحب أن يظهر أمام أقرانه بأنه البطل الشجاع الذى لا يقهر ، ولا يغلب . وكلما تركزت فيه هذه الصفة ، أخذ يتقدم الصفوف

---

(٢٤) انظر لسان العرب ١٢/٤٤٦ مادة غنم .

(٢٥) لسان العرب ٤/٣١٠ مادة : ذكر .

(٢٦) السابق ١٣/٤١٣ مادة : مكن .

الأولى من القتال ، ليبرهن على قوته وشجاعته ، حتى يشار اليه بالبنان .

والأعرابى فى كلامه السابق ، لم يحسن القسمة — وهو ما يسمى عند علماء البلاغة بالتقسيم ، وهو من البديع المعنوى(٢٧) — اذ حصر أهداف القتال فى ثلاثة أمور ، ذكرت فى الحديث المتقدم .

بقى قسم رابع ، قائم بنفسه ، وهو يتضمن الأهداف الثلاثة التى ذكرها الأعرابى ، ذلك هو ما ذكره رسول الله ﷺ ، ألا وهو القتال من أجل اعلاء كلمة الله .

ولعل السائل كان حديث عهد بالاسلام . فصورة الهدف من القتال كانت غير واضحة فى ذهنه ، فجاء التوجيه النبوى ليبين له ، أن القتال الحق ، هو ما كان فى سبيل الله .

وهنا يبرز تساؤل : لماذا اختار التعبير النبوى الشريف ، كلمة « قاتل » بدلا من « جاهد » فى قوله ﷺ — « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » ؟ .

والجواب عن ذلك :

لما كان الأعرابى السائل ، يستفسر عن الرجل الذى يقاتل « قاتل » ، حتى يقع التناسب بين الألفاظ . ولو ذكرت كلمة « جاهد » لحصل خلل فى هذا التناسق والتناسب بين الكلمات .

ومن جهة أخرى ، لما كان القتال الذى ذكره الأعرابى : للمغنم ، أو للذكر ، أو ليرى مكانه ، ليس فى سبيل الله ، وانما فى سبيل أهداف

---

(٢٧) انظر الايضاح فى علوم البلاغة ٥٠٦ .

دنيوية ، كان من المناسب فى حديث الرسول ﷺ أن يذكر كلمة « قاتل » من أجل توجيه القتال الى هدف أسمى ، وغاية شريفة ، ألا وهى فى سبيل الله » .

وعلى هذا الأساس ، فالقتال قد يكون فى سبيل الله ، وهذا ما يريده رسول الله ﷺ ، وقد يكون فى سبيل الدنيا ، وهذا ما أشار اليه الأعرابى .

فاذا كان من الصنف الأول ، فهو محمود ، وان كان من النوع الثانى ، فهو مذموم .

وأما الحديث الثالث ، ففيه اشارة الى وقوع الاقتتال بين المسلمين أنفسهم .

قال الرسول ﷺ : « اذا رأيت الناس يقتتلون على الدنيا .. » . ولذلك كان الرسول ﷺ دقيقا فى اختيار الكلمة « يقتتلون » ، لأن القتال قد يقع بين المسلمين ، لأسباب دنيوية ، أو لاتباع هوى فى النفوس ، أو لتحقيق مكاسب شخصية ، وأطماع سياسية .

وفى هذه الحالة ، لا يكون القتال محمودا ، بل يكون مذموما . وهذا فارق جوهرى بين القتال والجهاد . اذ ان الجهاد ، يكون القصد منه ، مقاتلة الكفار فقط . كما وضحنا ذلك سابقا .

بينما القتال ، يتفق معه من هذا الجانب — أى مقاتلة الكفار — ، ويختلف معه من جانب آخر ، حيث يقع القتال بين المسلمين أنفسهم بدليل الحديث السابق ، ودليل قوله تعالى :

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى ، حتى تفىء الى أمر الله » .

فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين »(٢٨) •

فالطائفتان مؤمنتان ، واحداهما باغية ، ولكنها لا تخرج من الملة، بل تبقى مسلمة • فالقتال هنا وقع بين المسلمين أنفسهم • بعكس الجهاد الذى لا يكون الا مع الكفار •

ولذلك يكون بين القتال والجهاد ، عموم وخصوص • فالقتال فرع عن الجهاد • وعليه نستطيع أن نقول : ان كل جهاد قتال ، وليس كل قتال جهادا •

وكذلك الجهاد فيه معنى « الخصوصية » لكونه يختص بمجاهدة الكفار ومن هم على شاكلتهم •

وأما القتال ، ففيه معنى « العمومية » اذ أنه يقع بين المسلمين والكفار ، كما أنه يقع بين المسلمين أنفسهم ، على ما فصلناه فى الحديث المتقدم •

بقى أمر مهم ، يهم أمر المسلمين ، وخاصة فى هذه الأيام العصيبة ، التى نسأل الله ، أن يجعل لنا منها مخرجا ، وليس ذلك على الله ببعيد •

ذلك الأمر ، هو مقاتلة « اليهود » •

ففى الحديثين الرابع والخامس ، يخبرنا رسول الله ﷺ ، بمقاتلة اليهود • وهذا من معجزاته ــ عليه السلام ــ • التى ستتحقق فى المستقبل القريب ان شاء الله •

---

(٢٨) سورة الحجرات آية ٩ •

يقول عليه السلام : « تقاتلون اليهود ، حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر .... » .

ويقول عليه السلام : « لا تقوم الساعة ، حتى تقاتلوا اليهود .... » .

فالتعبير النبوى ، قد اختار كلمة « تقاتلون » ، وهى مشتقة من « القتال » ، بدلا من كلمة تجاهدون ، أو تحاربون ، أو تغزون . فما السر فى ذلك ؟ .

لقد عرفنا أن الجهاد ، مفهومه عام . فقد يعنى القتال ، وقد يعنى بذل الجهد ، بدون حرب ، كالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وفعل الطاعات ، واجتناب النواهى ، وبر الوالدين ، وقد تقدم ذلك ، عند تعريف الجهاد لشيخ الاسلام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزيه ... رحمهما الله .

فلو ذكرت كلمة « تجاهدون » فى حديث مقاتلة اليهود ، لأصبح المعنى عائما عند المسلمين .

فبعضهم قد يرى قتالهم ، وبعضهم قد يرى أن نأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر ، وبعضهم قد يرى دعوتهم للاسلام ، وبعضهم قد يرى أن نجاهدهم بالقلب ، وبعضهم من يرى أن الجهاد جهاد النفس لا غير ، وكل هذه الأنواع ، من جنس الجهاد .

فالتعبير النبوى ، استخدم كلمة « تقاتلون » ، لأنه أراد أن يقصد « القتال » بعينه . أى بمعناه المحدد المعروف .

وفى هذه الحالة ، لا يكون هناك اجتهاد عند المسلمين ، كما هو الشأن فى مفهوم الجهاد .

لهذا كان الاختيار دقيقا ، اذ جاء التعبير ، بكلمة « تقاتلون » ، وبصيغة الفعل المضارع • هذه الكلمة فى هـذا الموطن ، كانت أقدر على تصوير المعنى المراد • فقتـال اليهود ، سيتم ـ بمشـيئة الله ـ ولو بعد حين •

وأما قول الرسـول ﷺ « تقاتلون اليهود » ، « حتى تقاتلوا اليهود » ، ففيه خطاب للحاضرين ، ولكن المقصود غيرهم • ويجوز أن تخاطب شخصا ، وتريد غيره(٢٩) •

فأمة محمـد ﷺ باقية ، ولا تقوم السـاعة الا بعد أن يقاتلوا اليهـود •

وهـذا الحديث ، فيه اشـارة الى بقاء الاسلام ، الى أن ينزل عيسى عليه السلام فهو الذى يتكفل بمقاتلة الدجال ومن معه(٣٠) •

ثم ان هذه الكلمة « تقاتلون » ، « حتى تقاتلوا » ، جاءت بصيغة الفعل المضـارع •

ومعلوم أن الفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار ، كما أنه يفيد الحال والاستقبال •

ويفهم من ذلك ، أن القتـال مع اليهـود ، سـيكون متجددا ، ومستمرا ، وسـيكون فى الحـال ، وفى المستقبل • وواقع الحال ، يثبت ذلك •

فالقتال مع اليهود ، لازال مستمرا ، ولكن بصـورة متقطعة وغير

---

(٢٩) انظر فتح البارى ٦/١٠٣ •

(٣٠) انظر السابق ٦/١٠٣ ، وانظر عمدة القارى ١٤/١٩٩ •

منتظمة • ومع هذا فانه يشحذ الهمم ويقوى العزائم ، ويهيىء المنطقة للقتال معهم •

وأما فى المستقبل ، فالقتال سيقع مع اليهود • كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حيث يجتمع جند الله ، بما فيهم الشجر والحجر الذى يقول : « يا عبد الله ، هذا يهودى ورائى فاقتله » •

**ثالثا الغزو :**

هذه الكلمة ، استخدمت فى التعبير النبوى الشريف ، وإكنها جاءت على قلة من حيث الاستعمال ، بالنسبة للكلمتى : الجهاد والقتال •

والغزو لغة(٣١) معناه القصد • مأخوذ من غزا الشىء غزوا : أراده وطلبه •

واصطلاحا : هو السير الى قتال العدو وانتهابه •

وقد وردت هذه الكلمة فى الشعر الجاهلى ، كقول الأعشى(٣٢):

وفى كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيم عزائكا

والذى يلحظ أن مفهوم « الغزو » عند العرب فى العصر الجاهلى، كان ينحصر فى الاقتتال الذى يكون هدفه السلب والنهب ، وقطع الطرق

---

(٣١) لسان العرب ١٢٣/١٥ مادة غزا ، وانظر المخصص لابن سيده ٩١/٤ سفر ١٣ ، وانظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ١٣٢/٤ •

(٣٢) شرح ديوان الأعشى الكبير ٢٤٢ •

لكسب الرزق ، وأخذ الثأر ، متخذين من قولهم المشهور : « فى الجزيرة تشترك العشيرة »(٣٣) شعارا لهم فى الحياة .

ولكن بالنظر الى استخدام هذه الكلمة فى الحديث الشريف ، نرى أن الامر ، يختلف تماما .

فالغزو فى مفهوم الاسلام ، ليس للنهب والسلب — كما هو الشأن فى مفهوم الجاهلية — ، وانما هو لاعلاء كلمة الله .

فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف ، ما يوضح مفهوم «الغزو» فمنه ما هو مذموم — وهو ما كان على نمط مفهوم الغزو عند الجاهلية — ومنه ما هو محمود ، وهو الذى يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى .

والحديث التالى ، يوضح ذلك :

— عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله ﷺ قال(٣٤) : « الغزو غزوان : فأما من ابتغى وجه الله ، وأطاع الامام ، وأنفق الكريمة(٣٥) وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فان نومه ونبهه أجر كله .

وأما من غزا فخرا ، ورياء ، وسمعة ، وعصى الامام ، وأفسد فى الأرض ، فانه لم يرجع بالكفاف (٣٦) .

---

(٣٣) مجمع الأمثال للميدانى ٢/٧٣ — دار الفكر .

(٣٤) سنن أبى داود ٢/١٧ كتاب الجهاد — دار الجنان — بيروت .

(٣٥) الكريمة : المختارة النفيسة الجيدة من الأنعام .

(٣٦) أى لم يرجع لا عليه ولا له من الثواب ، بل يرجع وقد لزمه الأثم .

فالغزو اذا نوعان : نوع ما كان القصد منه وجه الله ، والنوع الآخر ما كان الهدف منه الفخر والسمعة والرياء ، فالأول محمود ، والثانى مذموم .

وكان الرسول ﷺ اذا أمر أميرا على سرية(٣٧) ، أو جيش ، كان يوصيه ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله.اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا . واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال ( أو خلال ) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم الى الاسلام... »(٣٨) .

لم وقع التعبير النبوى بكلمة « اغزوا » بدلا من لفظة «جاهدوا» أو « قاتلوا » ؟

هذه الكلمة « اغزوا » ، تناسب السياق . اذ ان الغزو ، فيه معنى القصد والطلب . فالرسول ﷺ ، هو الذى طلب القوم وقصدهم فهو الذى أرسل السرية أو الجيش ، لمداهمة العدو فى أماكنهم .

وهذا أدعى ، الى انزال الرعب فى قلوبهم ، واضعاف عزيمتهم وشوكتهم .

فالغزو الى بلاد العدو ، قد يكون بحضور الرسول ﷺ شخصيا

---

(٣٧) سرية قطعة من الجيش . تغير وترجع . وسميت بهذا الاسم، لانها تسرى بالليل .

(٣٨) صحيح مسلم ٦/٢٨٩ كتاب الجهاد والسير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

الى أرض المعركة ، كما هو الشأن فى غزوة بدر ، وأحد ، والخندق ، وغيرها .

وقد يكون بتوجيه منه ، دون أن يكون له حضور شخصى فى المعركة ، كغزوة مؤتة وغيرها(٣٩) .

وقد يحدث الغزو بعده ، أى دون أن يكون له حضور شخصى ، أو توجيه منه ، كما فى الحديث التالى :

ـ عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال : « يأتى زمان يغزو فئام(٤٠) من الناس ، فيقال : فيكم من صحب النبى ﷺ ، فيقال نعم . فيفتح عليه . ثم يأتى زمان ، فيقال : فيكم من صحب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيقال : نعم فيفتح . ثم يأتى زمان فيقال : فيكم من صحب صاحب أصحاب النبى ﷺ فيقال : نعم ، فيفتح »(٤١) .

هذا الغزو ، الذى أخبر عنه رسول الله ﷺ لم يقع فى زمنه ، وانما وقع فى وقت لاحق ، ولذا جاءت صيغة الفعل بالزمن المضارع ، الذى يدل على المستقبل .

لم اختار التعبير النبوى هذه الكلمة « يغزو » بدلا من الكلمات الأخرى ، التى تقربها فى المعنى ؟

والجواب عن ذلك نقول :

---

(٣٩) انظر فتح البارى ٧/٢٧٩ .

(٤٠) فئام : جماعة من الناس ، ولا واحد له من لفظه ، كما قال صاحب العين .

(٤١) صحيح البخارى ٣/١٠٦١ دار القلم باب الجهاد ، وانظر عمدة القارى : ١٤/١٧٩ .

لما كان الغزو فيه معنى الطلب والقصد ، والسير الى أرض العدو ، حسن فى هذا المقام أن تستخدم كلمة « يغزو » ، وذلك ليتفق مدلول الكلمة ، مع مضمونها ومحتواها .

ومما يزيدها حسنا أيضا فى هذا المقام — أى كلمة « يغزو » — أن الكلمة تحمل فى ثناياها ، معنى التفاؤل والبشارة .

فقد بشر الرسول ﷺ هذه الجماعة التى ستغزو من بعده ، بالنصر والفتح ، وقد تم لهم ذلك كما هو واضح فى الحديث الشريف.

كذلك نلحظ فى التعبير النبوى أن كلمة الغزو وما يشتق منها ترد اذ كان السير الى أرض العدو ، يتم عن طريق البحر ، وذلك لما فى هذه الكلمة من معنى التفاؤل والبشارة بالخير .

قال عمير : حدثتنا أم حرام : انها سمعت النبى ﷺ يقول : أول جيش من أمتى يغزون البحر ، قد أوجبوا(٤٢) .

قالت أم حرام : قلت يارسول الله!أنا فيهم ؟ قال : «أنت فيهم». ثم قال النبى ﷺ : « أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم » . فقلت : أنا فيهم يا رسول الله ! قال : « لا »(٤٣) .

فالغزو فى البحر ، فيه مشقة بالغة ، ومكابدة شاقة ، ففيه الأمواج الثائرة ، والريح العاتية .

فحدوث المعركة فيه ، مهلكة للأطراف المتحاربة .

من هنا ، حسن استخدام هذه الكلمة « يغزون » ، لما فيها من معنى التفاؤل بالنصر والفتح ، للفئة الغازية من المسلمين .

---

(٤٢) اوجبت لهم الجنة ، او اوجبوا استحقاق الجنة .

(٤٣) صحيح البخارى ٣/١٠٦٩ باب الجهاد — دار القلم .

وقـد تم للمسلمين ما أرادوا ، حيث غزوا مدينة قيصر ، يعنى القسطنطينية • قال المهلب : فى هذا الحديث ، منقبة لمعـاوية ، لأنه أول من غزا البحر ، ومنقبة لولده يزيد ، لأنه أول من غزا مدينة قيصر • وكان ذلك فى سنة اثنتين وخمسين من الهجـرة ، حيث توفى فيهـا أبو أيوب الأنصارى ، وقـد أوصى أن يدفن عنـد باب القسطنطينية، وأن يعفى قبره • ويقال : ان الروم صاروا يستسقون به(٤٤) •

ومما يسترعى النظر ، أن الغزو الذى يخبر عنـه رسول الله ﷺ ويحدث فى المستقبل ، يكون فأنه النصر والفتح ، والتمكين للفئة التى تغزو • والأحاديث التى ذكرت تؤيد ذلك •

بقى أمر أخير ، يثير تساؤلا لابد من الاجابة عنـه ، ذلك السؤال هو : هل يغزو المسلمون بعضهم بعضا ؟

الجـواب : لا •

فالغزو ــ كما رأينا ــ فيـه معنى التفاؤل ، والبشارة ، والخير •

فأى بشارة أو خير ، يكسبه المسلمون عندما يغزو بعضهم بعضا ؟ انهم لن يجنوا الا الشر والدمار • والعار والشنار والآثام •

فالغزو فى المفهوم الاسلامى لا يكون الا بين فئة مؤمنة ، وأخرى كافـرة •

ولذلك لا تسمى الحرب التى تقع بين المسلمين أنفسهم ، جهادا ، ولا غزوا ، بل تسمى قتـالا •

---

(٤٤) انظر فتح البارى ٦/١٠٢ ، وانظر معاوية بن ابى سـفيان وعصره ١١٩ ــ عمر أبو النصر ــ منشورات المكتبة الأهلية ، بيروت •

وهـذا من فروق الاستعمال بين الغزو والقتال •

وقد كان هـذا مراعى فى غزوات الاسلام كلها • سواء ما كان حضرها الرسول ﷺ شخصيا ، أو جيش لهـا السرايا والجيوش ، أو ما خبر به عن غزو تقوم به فئـة من المسلمين •

ففي جميع هـذه الصور ، كان القتال فيها ، بين طائفة مسلمة ، وأخرى كافـرة •

## رابعـا ـ الحـــرب :

الحرب فى اللغة : نقيض السلم • وأصلها الصفة ، كأنها مقاتلة حرب • وهى مؤنثة • قال الأزهرى : أنثوا الحرب ، لأنهم ذهبوا بهـا الى المحـــاربة •

ومنهم من حكى فيها التـذكير ، لأنهـم حملوا المعنى على معنى القتـل(٤٥) •

هـذه الكلمة من الألفاظ التى تداولها العـرب فى استعمالاتهم الحربية والشعرية ، وأحاديثهم اليومية •

فقد سموا بعض أيامهم(٤٦) التى وقعت فيها الحروب ، باسـم حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، حيث استمرت كل واحـدة منهما أربعين سـنة •

---

(٤٥) لسان العرب ١/٣٠٢ ، ٣٠٣ مادة حرب •

(٤٦) انظر تاريخ الجاهلية ، د• عمر فروخ ٩٨ ، ١٢٧ •

وقد ورد استعمال هـذه اللفظة فى الشـعر • يقول زهير بن أبى سلمى(٤٧) •

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمـة ... وتضرم اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحـا بثفـالها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

فحروب العرب فى الجـاهلية ، كانت محمرة ، تأتى على الأخضر واليابس • تقوم بينهم الحروب ، لأتفه الأسباب ، اما بقصد الفخـر والاعتزاز ، واما بقصد السلب والنهب •

فكلمة الحرب ، تثير فى الذهن ، الدمار الشامل ، من اراقة الدماء ، والطغيان ، والأحقاد ، والأضـغان ، والفقر ، والخـوف ، وزعزعة الأمن ، وعدم الاستقرار •

هـذه الكلمة « الحرب » ، نادرا ما كان الرسول ﷺ يستخدمها فى كلامه •

وحتى اذا استعملها عليه السلام فى السياق ، فيـكون ذلك فى معرض الحديث عن غير المسلمين الذين تقع بينهم الحروب الطاحنة •

فلننظر الى قول الرسول ﷺ فى صلح الحديبية :

« انا لم نجىء لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وان قريشـا قـد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم • فان شاؤوا ماددتهم مدة ، ويخلوا بينى وبين الناس ، فان أظهر ، فان شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، والا فقد جموا ، وان هم أبوا ، فوالذى نفسى بيـده ،

---

(٤٧) شرح شعر زهير بن ابى سلمى لأبى العباس ثعلب : ٢٦ •

لأقاتلنهم على أمرى هـذا ، حتى تنفرد سالفتى ، وأينفـذن الله أمره »(٤٨) .

فقوله ﷺ « نهكتهم الحرب » بمعنى أنهم بالغوا فى الحرب ، حتى أجهدتهم وأتعبتهم (٤٩) .

والنهك مأخوذ من قول العرب : « نهكت الناقة حلبا . أنهكها ، اذا لم تبق فى ضرعها لبنـا »(٥٠) .

فكذلك الحرب ، تأتى على كل شىء فلا تبقى منه شيئا .

والذى يلحظ ، أن التعبير النبوى استخدم كلمة « القتال » مكررة مرتين ، ولم يذكر لفظة « الحرب » وذلك فى قوله ﷺ :

« انا لم نجىء لقتال أحـد » .

وقوله : « فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هـذا » .

فهو عليه السلام لم يقل : « انا لم نجىء لحرب أحـد » .

أو أن يقول : «حاربنهم على أمرى هذا » .

ولكن ، عندما كان الحديث عن كفار قريش ، نجد أن الرسـول ﷺ قد اختار كلمة الحرب ، فقال : « وان قريشا قد نهكتهم الحرب » . فما السر فى ذلك ؟ .

يظهر — والله أعلم — أن الرسول ﷺ قد استبعد هـذه الكلمة

---

(٤٨) صحيح البخارى ٢/٩٧٥ باب الشروط — دار القلم — بيروت

(٤٩) انظـر لسان العرب ١٠/٥٠٠ مادة نهك .

(٥٠) انظر السابق ١٠/٥٠٠ ، وانظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ٥/١٣٧ .

« الحرب » من سياق حديثه ، واختار بدلا منها « القتـــال » بسبب وجود الفارق العظيم بينهما .

فذكر كلمة « الحـــرب » فى جـــانب قريش ، يناسب وضـــعهم السياسى تماما . فهى تعكس واقعهم المرير ، وحالهم المشـــين ، اذ أنهكتهم الحرب ، وبالغوا فيها ، حتى أصبحت عنـــدهم عادة يتباهون بهـــا ، ولهوا يتسلون به .

فواقـــع حالهم كواقع عرب الجـــاهلية من قبلهم ، اذ عبر عنـــه الشاعر عمرو بن كلثوم(٥١) :

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدى لاعبينا

والشاعر عنترة(٥٢) :

وسيفى كان فى الهيجا طبيبا يداوى رأس من يشكو الصداعا

فأى هدف ، وأية رسالة للحروب الطاحنة التى كانت تقع بين عرب قريش . انها رسالة الظلم والاعتداء ، وحب المفاخرة والمباهاة ، وزرع الفتن والأحقاد ، وتحقيق المصالح والأهواء .

هـــذه الصورة للحرب ، كانت واضحة لدى الرسول ﷺ ، ولذلك نجده قـــد تحاشى اختيارها فى كلامه واصـــطفى بدلا منهـــا كلمـــة « القتـــال » لأن له هدفا أسمى ، ورسالة شريفة ، انه فى سبيل اعلاء كلمة الله .

وهـــذا واضح من كلام رســـول الله ﷺ اذ يقول : « فوالذى نفسى بيده ، لأقاتلنهم على أمرى هـــذا » .

---

(٥١) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٦٨ .
(٥٢) شرح ديوان عنترة ٩٠ شرح الخطيب التبريزى .

وما أمره الا الاسلام •

وكذلك ــ أى القتال ــ ليس فيه ظلم ، ولا اعتداء على أحد ، وهذا ظاهر فى قول النبى ﷺ : « انا لم نجىء لقتال أحد » •

فالقتال ــ فى مفهوم الاسلام ــ ليس هدفا فى حد ذاته • وانما هو وسيلة لغاية نبيلة ، ورسالة خالدة •

فقد بان الفرق ، واتضح الأمر •

فاذا كان الحديث عن قريش ، فان الرسول ــ ﷺ ــ يختار فى تعبيره كلمة « الحرب » ، لأنها تناسب المقام ، وواقع الحال ، فهى أسم على مسمى •

واذا كان الرسول ﷺ طرفا فى المعركة معهم ، فانه يختار كلمة « القتال » ، لأنها فى هذا المكان أنسب • ولتوضيح المعنى أصوب •

وقد أجاد عمرو بن معد يكرب ، عندما قال له عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنهما ــ صف لنا الحرب فقال(٥٣) :

مرة المذاق ، اذا قلصت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن ضعف عنها تلف ، ثم أنشأ يقول(٥٤) •

---

(٥٣) انظر الشعر والشعراء ٢٢٠ •

(٥٤) شعر عمرو بن معد يكرب ، مطاع الطرابيشى ١٥٤ •

وفى تاريخ ابن عساكر ، تمثل بها عمرو ، ناسبا اياها الى امرىء القيس • وكذلك هذه الأبيات من زيادات نسخة ابن النحاس ــ ديوان امرىء القيس : ٣٥٣ بتحقيق : د• محمد ابو الفضل ابراهيم •

الحـرب أول ما تكون فتيـة
تسـعى بزينتهـا لكل جهـول
حتى اذا استعرت وشـب ضرامهـا
عادت عجـوزا غير ذات خليـل
شمطاء جـزت رأسـها وتنـكرت
مكروهة للشـم والتقبيـل

هـذا التصور لكلمة « الحرب » ، وما تثـيره فى النفس ، من مشاعر الكره والبغض ، والحقد والحسد ، والخداع والمكر .

وكذلك ما تثيره فى الذهن ، من تداعى أحوال الحرب وأهوالها ، وظروفها ، وأسبابها ، وهدفها ورسالتها ، ومصير أهلها ونتائجها .

هـذا التصور للحـرب ، هو الذى جعـل الرسول ﷺ ، يقرن الحرب بالخـدعة .

ـ فعن جابر رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ الحـرب خـدعة »(٥٥) .

ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « الحرب خدعة »(٥٦) ، بضم الخاء وفتحها .

ـ وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنـه قال : قال النبى ﷺ : « الحرب خدعة »(٥٧) ، بضم الخاء وفتحها .

---

(٥٥) صحيح مسلم ٣/١٣٦١ .
(٥٦) صحيح البخارى ٣/١١٠٢ ـ دار القلم ـ بيروت ، وانظـر صحيح مسلم ٦/٣٠١ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دار القلم .
(٥٧) السـابق ٣/١١٠٢ .

وهنا موطن سؤال : لماذا قرن الرسول ﷺ الخديعة بالحرب ، ولم يقرنه بالجهاد ، أو القتال ، أو الغزو كأن يقال : الجهاد خدعة ، القتال خدعة ، الغزو خدعة .

وللاجابة عن هذا السؤال ، لابد أن نقف على معنى « خدعة » فى الحديث النبوى الشريف .

جاء فى لسان العرب : أن الخدع : هو اظهار خلاف ما تخفيه ، قال أبو زيد : خدعه يخدعه خدعا بالكسر .

وأجاز غيره : خدعا بالفتح .

وخديعة وخدعة : أى أراد به المكروه ، خته من حيث لا يعلم(٥٨) .

وقيل الخدع والخديعة : المصدر ، والخدع والخداع : الاسم ، وقيل : الخديعة : الاسم(٥٩) .

وكلمة « خدعة » فيها ثلاث لغات وهى :

الأولى : خدعة ، وهى لغة النبى ﷺ كما ورد ذلك عن ثعلب(٦٠) ، وابن الأثير(٦١) . وهى أفصح اللغات وأصحها . ويكون المعنى : « أن الحرب ينقضى أمرها بخدعة واحدة من الخداع . أى أن المقاتل ، اذا خدع مرة واحدة ، لم تكن لها اقالة »(٦٢) .

---

(٥٨) لسان العرب ٦٣/٨ مادة : خدع .

(٥٩) لسان العرب ٦٤/٨ مادة : خدع .

(٦٠) انظر لسان العرب ٦٤/٨ مادة خدع .

(٦١) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٤/٢ .

(٦٢) السابق ١٤/٢ .

الثانية : « خدعة » • ويكون المعنى أن الحرب تخدع ، وهى الاسم من الخداع(٦٣) •

الثالثة : « خدعة » ويكون المعنى « أن الحرب تخدع أهلها ، أى تخدع الرجال ، وتمنيهم ، ولا تفى لهم »(٦٤) •

وقد ذكر المنذرى ، لغة رابعة ، بفتح الخاء والدال هكذا : « خدعة » • وقال : هو جمع خادع •

وعلى هذه اللغة ، يصبح المعنى أن أهل الحرب ، يتصفون بهذه الصفة « الخداع » ، فأصبحت ملازمة لهم فى حروبهم ، لا تنفك عنهم ، فكأنه قال : أهل الحرب خدعة(٦٥) •

ولأهمية الخداع فى عرف العرب ، فقد جعلوه فى أمثالهم السيارة، حيث قالوا : « أخدع من ضب »(٦٦) •

وفى هذا المعنى قال شاعرهم أبو الوجيه العكلى(٦٧) :

وأخدع من ضب اذا جاء حارش أعد له عند الزنابة عقربا

ولعل الحكمة من مجىء « الخدعة » بالتاء المربوطة(٦٨) ، هى للدلالة على الوحدة ، بمعنى أن الخداع قد يقع من قبل المسلمين فى الحرب ، كما أنه كذلك ، قد يقع من قبل الكفار والمشركين •

---

(٦٣) السابق ٢/١٤ •

(٦٤) السابق ٢/١٤ ، وانظر لسان العرب ٨/٦٤ مادة خدع •

(٦٥) فتح البارى ٦/١٥٨ •

(٦٦) سوائر الأمثال على افعل ١٦٤ •

(٦٧) السابق ١٦٤ •

(٦٨) انظر فتح البارى ٦/١٥٨ •

فقول الرسول ﷺ « الحرب خدعة » فيه اشارة لحض المسلمين على استخدام الخداع فى الحرب ، ولو مرة واحدة على الأقل .

وان كان الخداع حاصلا من قبل الكفار ، فالرسول ﷺ ، يطلب من المسلمين أن يحذروا من مكرهم ولو وقع مرة واحدة منهم — أى من الكفار — (٦٩) .

قال النووى : « واتفقوا على جواز خداع الكفار فى الحرب ، كيفما أمكن ، الا أن يكون فيه ، نقض عهد أو أمان فلا يجوز »(٧٠) .

والخديعة فى الحرب من الكذب المباح ، الذى أذن فيه رسول الله ﷺ ، رفقا بحال العباد وضعفهم .

فقد ورد عنه أنه قال : « لا يحل الكذب الا فى ثلاث : يحدث الرجل امرأته ليرضيها ، والكذب فى الحرب ، وفى الاصلاح بين الناس »(٧١) .

فالمخادعة فى الحرب ، تقلل من خطر المواجهة مع العدو .

فالذى يتقن أساليب الخداع : من تورية ، أو تعريض ، أو كناية ، أو كمين ، أو كذب مباح ، أو ايهام ، فانه يستطيع أن يحرز النصر ويظفر به بعد توفيق الله ، دون أن يقع فى خطر ماحق ، أو أن يتكبد الخسائر فى المال أو الأرواح .

---

(٦٩) السابق ١٥٨/٦ .

(٧٠) السابق ١٥٨/٦ .

(٧١) عمدة القارى ٢٧٦/١٤ .

ولو نظرنا فى طبيعة الظروف التى قال فيها الرسول ﷺ « الحرب خدعة » ، لوجدنا أنه قال ذلك فى غزوة الخندق ، كما ذكر ذلك الواقدى(٧٢) •

انها ظروف قاسية جدا ، ويكفى أن سورة فى القرآن الكريم سميت باسم هذه الغزوة •

وقد وصف القرآن الحكيم حالة الرسول ﷺ وحالة المؤمنين فى هذه المعركة ، وصفا يعجز عنه البيان الساحر •

قال تعالى : « •••• اذ جاؤكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديدا »(٧٣) •

بعد هذه الجولة ، مع معنى « خدعة » والغات التى وردت فيها عن العرب ، نجيب عن السؤال السابق :

لماذا قرن الرسول ﷺ الخديعة بالحرب ولم يقرنها بالجهاد أو القتال أو الغزو ؟ •

والاجابة عن هذا السؤال نقول :

ان المعانى ، تستقر فى الذهن ، حيث يقوم بترتيب الألفاظ التى تناسب المعنى المراد •

فاذا كانت الحرب تقوم على أساس الظلم والنهب والسلب وإراقة الدماء لأسباب تافهة ، ودوافع خسيسة ، مقنعة بثياب المكر

---

(٧٢) انظر فتح البارى ١٥٨/٦ •

(٧٣) سورة الأحزاب الآيتان ١٠ ، ١١ •

والخداع والكيد والحقد ، فما القرين المناسب من الكلمات ، الذى يتفق مع « الحرب » بعدما عرفنا المضمون والمحتوى ؟ .

لاشك فى أنها كلمة « خدعة » ، بكل ما تحمله من مضمون مشين ، ومعنى سـقيم .

فكلمة « خدعة » وما يشتق منها تدور حول المعانى التالية :

اظهار خلاف ما تخفيه ، الدهاء والمكر ، الشخص الذى لا يوثق بمودته ، المنع والحيلة ؟ ، كساد السوق ، فساد الريق ، اخفاء الشىء ، منع الحق ، الخلق المتلون ، ظفرت به ، الفاسد من الطعـام وغيره ، امساك الانسان عن العطاء ، السنون القليلة المطر ، عدم الثبات على رأى واحد ، حبس الماشية والدواب ، على غير مرعى ولا علف(٧٤) .

أليست هـذه المعـانى ، تتناسب مـع مضمون معنى الحـرب ومفهومه ؟

بلى ! فالمضمون واحد ، وان اختلفت الأسماء .

وما أشبه هذين اللفظين المتفقين فى المضمون بقول المثل : «وافق شن طبقـة »(٧٥) .

فالخدعة لا تتناسب مع الجهاد ، ولا مع القتال ، ولا مع الغزو ، لأن هـذه المسميات ، لها رسالة وهدف ، فكلها تصب فى غاية واحدة ، ألا وهى اعلاء كلمة الله .

---

(٧٤) انظر لسان العرب ٦٣/٨ وما بعدها ـ مادة خدع .

(٧٥) مجمع الأمثال للميدانى ٣٥٩/٢ .

وأما ما ورد من كلمة « حرب » في قول الرسول ﷺ لفاطمة والحسين ـ رضى الله عنهما ـ : « أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم »(٧٦) ، فالأمر يختلف .

فالحرب ، نقيض السلم ، وبينهما طباق .

والحرب هنا ليس بمعنى القتال المعروف وانما هو بمعنى الخصومة والغضب . وهذا كقول العرب : « أنا حرب لمن حاربنى »(٧٧) .

والسلم هنا : بمعنى المصالحة .

وهكذا نجد دقة التعبير النبوى ، فى اختيار الكلمة المناسبة للسياق .

فالكلمات : الجهاد ، القتال ، الغزو ، الحرب ، لا تستخدم فى حديث الرسول ﷺ عشوائيا ، بل تختار بدقة ، فلكل واحدة منها معنى مناسب ، يتطلبه السياق .

فقد تصلح كلمة الجهاد فى موطن ، ولا تصلح بدلا منها كلمة القتال ، أو الغزو ، أو الحرب فى الموضع نفسه ، لأنه لا يمكن أن تقوم الكلمة بأداء المعنى المقصود نيابة عن الأخرى .

فلكل كلمة ، مدلولها الخاص بها ، فلا تقوم الكلمة مقام اللفظة الأخرى فى تأدية المعنى المراد .

---

(٧٦) صحيح الجامع الصغير وزياداته ١/٣٠٦ ، رقم الحديث ١٤٦٢ . تأليف : الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ـ المكتب الاسلامى ـ بيروت ط ٢ ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

(٧٧) انظر لسان العرب ١/٣٠٣ ـ ٣٠٤ مادة : حرب .

## عاد ، زار

من الكلمات التي يظن أنها من الترادف ، كلمتا : عاد ، زار • ولكن عند التحقيق ، نجد أن كل واحدة منهما لها معنى خاص ، يحدده السياق ، ويفرضه واقع الاستعمال • فلو استخدمنا كلمة « عاد » مكان ، « زار » ، أو بالعكس ، لفات علينا المقصود ، ولابتعدنا عن المطلوب ، ووقعنا في المحظور •

وقبل أن نذكر طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة • على وقوع هذين الفعلين ، وما يشتق منهما ، في التعبير النبوي ، يحسن أن نتعرف على معناهما من خلال كتب اللغة •

جاء في لسان العرب : « عاد العليل ، يعوده ، عودا ، وعيادة : زاره •

قال الفراء : يقال : هؤلاء عود فلان ، وعواده ، مثل زوره ، وزواره ، وهم الذين يعودنه اذا اعتل •

وكل من أتاك مرة بعد أخرى ، فهو عائد ، وان اشتهر ذلك في عيادة المريض ، حتى صار كأنه مختص به »(١) •

وجاء في تاج العروس ما نصه : « وقد عاده ، يعوده : زاره • والعود : زيارة المريض • كالعياد ، والعيادة بكسرها • والعواد : جمع الاناث • يقال : نسوة عوائد ، وعود ، وهن اللاتي ، يعدن المريض • الواحدة : عائدة •

---

(١) لسان العرب ٣/٣١٩ مادة عود •

والمريض : معود ، ومعوود • والأخيرة شاذة ، وهى تميمية »(٢)

وجاء فى القاموس المحيط : « العود : الرجوع • كالعودة ، والمعاد ، وزيارة المريض : كالعياد ، والعيادة والعوادة بالضم • وجمع العائد ، كالعواد ، والعود • والمريض معود ومعوود »(٣) •

وأما « زار » ، فقد ورد معناها فى كتب اللغة على النحو الآتى :

جاء فى لسان العرب : « الزور : الزائرون • وزاره يزوره زوارا وزيارة وزوارة : عاده •

والزور : الذى يزورك •

ورجل زور ، وقوم زور ، وامرأة زور ، ونساء زور ، يكون للواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، بلفظ واحد ، لأنه مصدر »(٤) •

وجاء معنى الزيارة نفسه فى تاج العروس الا أنه أضاف « والزور مصدر زار يزوره زورا : أى لقيه بزوره أو قصد زوره أى جهته »(٥)•

وجاء فى الكليات : « الزيارة : مصدر • زرت فلانا : أى لقيته بزورى ، أو قصدت زوره ، وهو أعلى الصدر »(٦) •

---

(٢) تاج العروس ٢/٤٣٦ مادة عود •

(٣) القاموس المحيط ١/٣٣٠ ـ دار الجيل •

(٤) لسان العرب ٤/٣٣٥ مادة زور •

(٥) تاج العروس ٣/٣٤٥ مادة زار ، وانظر بصائر ذوى التمييز ٣/١٤٦ •

(٦) الكليات : ٤٩٠ •

وجاء فى القاموس المحيط : « الزور : وسط الصدر ، أو ما ارتفع منه الى الكتفين ، أو ملتقى أطراف عظام الصدر حيث اجتمعت . والزائر والزائرون كالزوار والزور »(٧) .

وجاء فى مفردات الراغب : « الزور أعلى الصدر ، وزرت فلانا : تلقيته بزورى ، أو قصدت زوره نحو وجهته »(٨) .

وعند النظر فى كتب اللغة ومعاجمها ، نرى أن أصحابها(٩) قد فسروا كلمة « عاد » بمعنى « زار » .

ولكنهم عندما تطرقوا الى معنى كلمة « زار » ، نجد بأنهم قد فسروا معناها ، دون أن يذكروا أنها بمعنى « عاد » باستثناء ابن منظور الذى ذكر بأن زار بمعنى عاد .

وهذا السكوت ، يدل دلالة واضحة على عدم اقتناع أصحاب(١٠) تلك الكتب بترادف هاتين الكلمتين .

والواقع أن هناك فرقا واضحا بين الفعلين ، حيث لا يمكن أن يقوم أحدهما مقام الآخر فى الاستعمال .

---

(٧) القاموس المحيط ٢/٤٣ مادة الزور .

(٨) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٢٢١ .

(٩) انظر لسان العرب ٣/٣١٩ مادة عود ، وانظر تاج العروس ٢/٤٣٦ مادة عود ، وانظر القاموس المحيط ١/٣٣٠ .

(١٠) انظر تاج العروس ٣/٤٤٥ ، وانظر القاموس المحيط ٢/٤٣ وانظر بصائر ذوى التمييز ٣/١٤٦ ، وانظر مختار الصحاح ١١٧ . وانظر معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب ٢٢١ ، وانظر الكليات ٤٩٠

فلو نظرنا الى استخدام هذين الفعلين فى سياق الأحاديث النبوية الشريفة ، لوجدنا الاختلاف بينهما واضحا ، والفرق بينا .

واهلنا نستطيع أن ندرك ذلك الفرق ، من خلال ذكر طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ .

١ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من عاد مريضا أو زار أخا له فى الله ، ناداه مناد ، أن طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلا »(١١) .

حيث اصطفى التعبير النبوى كلمة « عاد » للمريض و « زار » للأخ . وهــذا مما يعطى دلالة واضحة على وجود الفرق بينهما من ناحية المعنى .

٢ ــ وعن على ، قال : قال رسول الله ﷺ : « للمسلم على المسلم ستة بالمعروف : يسلم عليه اذا لقيه ، ويجيبه اذا دعاه ، ويشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، ويتبع جنازته اذا مات ، ويحب له ما يحب لنفســه »(١٢) .

فكلمة « يعوده » ، وليست « يزوره » ، هى المختارة فى الحديث النبوى الشريف .

٣ ــ وعن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « عائد المريض فى مخرفة(١٣) الجنة حتى يرجع »(١٤) .

---

(١١) صحيح الترمذى دار الكتاب العربى ٨/١٧٠ باب البر .

(١٢) سنن ابن ماجة ١/٢٦٤ ابواب الجنائز ــ تحقيق الأعظمى .

(١٣) المخرفة : السكة بين صفين من نخل ، يجتنى من ايهما شاء وقيل : الطريق ، وقيل هى البستان الذى فيه الفاكهة تخترف .

(١٤) صحيح مسلم ٨/٥٢١ كتاب البر .

فاسم الفاعل « عائد » ، هو المختار في التعبير النبوي .

٤ ـ عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، وفكوا العاني »(١٥) .

والعاني : هو الأسير . فكلمة « عودوا » هي المختارة في الحديث النبوي الشريف .

وبالنظر الى الأحاديث الأربعة الأولى ، نجد أن التعبير النبوي الشريف ، قد اختار الفعل « عاد » وما يشتق منه على النحو الآتي : عاد ، يعوده ، عودوا ، عائد .

وهذا الفعل ، وما يتفرع منه من صيغ ، قد أصبح خاصا بعيادة المريض ، فكأن هذا الفعل ، قد اقتصر عليه ، فلا يتعداه الى غيره .

فاللفظ من واقع معناه ، في كتب اللغة ، يفيد معنى التكرار والرجوع . أي بمعنى أن الانسان عليه أن يعود المريض ، بين الحين والآخر ، وذلك للسؤال عنه . والاطمئنان على صحته ، ومشاركته في همومه وأحزانه . فالمريض اذا لم يعد ، فانه يضعف ، ويستسلم الى المرض ، وتصبح حياته سيئة لا تطاق .

ولأهمية عيادة المريض ، نجد أن الله عز وجل ، يضيف مرض عبده الى نفسه ، وذلك من باب التشريف له ، والتشجيع للمسلمين على عيادته ، لأن للمريض في أول يوم سنة ، وبعد ذلك تكون تطوعا(١٦) .

---

(١٥) صحيح سنن ابي داود ـ الألباني ٢/٦٠٠ .

(١٦) انظر فقه السنة ـ سيد سابق ١/٣٠٩ .

فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ان الله عز وجل ، يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ! مرضت فلم تعدنى • قال : يا رب ! كيف أعودك ؟ وأنت رب العالمين • قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض، فلم تعـده • أما علمت أنك لو عدته ، لوجدتنى عنده ؟ »(١٧) •

فقول الله عز وجـل يوم القيـامة : « يا ابن آدم ! مرضت فلم تعدنى » انما هو على اعتبار ما كان ، أى يوم كان الانسان فى الدنيا ، فهذا من باب استحضار الصورة ، فالله سبحانه وتعالى ، يذكر الانسان ـ وهو فى عالم الآخرة ـ بعبده الذى مرض فى الدنيا ، ولم يعده • فانظر الى هـذا العتاب الجميل ، واللوم الرقيق •

ولعل سائلا يقول : ما الفائدة من هـذا العتاب ، ومن هذا اللوم والتقريع ، وقد انقطع عمل الانسان من الدنيا ؟

أليست الدنيا دار جـد وعمل ، والآخرة دار حساب وجزاء ؟

والجواب : أن هـذا أسلوب تعريض ، حيث يريد الله عز وجل ، أن ينبه المسلمين ـ وهم فى عالم الدنيا ـ الى جلال وعظمة ، عيـادة المريض ، وما فيها من أجر وثواب • فقد يغفل الانسان عنها ، فيستهين بهـا ، ويقلل من شأنها • ولذا سـوف يتذكر الانسـان ـ وهو فى الدنيا ـ هـذه المعاتبة للمقصرين فى عيادة المرضى من قبـل الله عز وجل يوم القيامة ، فعندئذ يندفع الى المحافظة على عيـادة المريض ، بنفس رضية وقلب رحيم •

---

(١٧) صحيح مسلم ٤/١٩٩٠ كتـاب البر ، تحقيق محمـد فؤاد عبد الباقى ط ٢ دار احياء التراث العربى ـ بيروت ـ لبنان •

ومما يلفت الانتباه أن الفعل « عود » ، قد وردت صيغ مشتقة منه ، فى القرآن الكريم بمعنى « الرجوع الى الشىء ، بعد الانصراف عنه اما انصرافا بالذات ، أو بالقول والعزيمة »(١٨) .

وذلك كقوله تعالى : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى »(١٩) .

وقوله تعالى : « وان عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا »(٢٠) .

وقوله تعالى : « وان تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت »(٢١) .

ولكنه لم يرد فى القرآن الكريم ، بمعنى عيادة المريض ، كما ورد ذلك ، فى أحاديث الرسول ﷺ وما جاء من كلام العرب .

ولعل هذا يعد من الفوارق فى استخدام الكلمة ، بين القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

كما تثير كلمة «عاد» ، وما يشتق منها فى الحس ، مشاعر المسرة والتفاؤل ، وذلك لما يشع من هذه الكلمة ، معنى العودة والرجوع .

فكم من مريض ، عافاه الله ، وعادت اليه صحته ، كما كانت ! ، مصداقا لقوله تعالى : « واذا مرضت فهو يشفين »(٢٢) .

---

(١٨) مفردات الراغب ٣٦٤ .

(١٩) سورة طه آية ٥٥ .

(٢٠) سورة الاسراء آية ٨ .

(٢١) سورة الأنفال آية ١٩ .

(٢٢) سورة الشعراء آية ٨٠ .

وكم يصيبنا السرور والفرح ، بشفاء المريض ، حينما تعود اليه عافيته ، وترجع اليه صحته •

أليست الكلمة تحمل في ثناياها ، مشاعر الفرح والسرور ، كما تحمل كلمة « العيد » ، الذى يعاد مرة بعد أخرى ، الأحاسيس والمشاعر نفسها ؟ •

فالكلمتان من أصل ثلاثى واحد ، وهو الفعل « عود » • فهما أصلان صحيحان(٢٣) •

فالعيد فى الشريعة الاسلامية ، خص بيوم الفطر ويوم عيد الأضحى • وهذا اليوم مجعول للسرور والحبور فى الشريعة الاسلامية ، حيث جاء « عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ ، أن رسول الله ﷺ أرسل صائحا يصيح أن لا تصوموا هذه الأيام فانها أيام أكل وشرب وبعال(٢٤) •••• »(٢٥) ، واسناده حسن •

فالعيد اذن ، يستعمل فى كل يوم فيه مسرة(٢٦) •

وكلمة « العيد » ، مشتقة من عاد ، يعود ، كأنهم عادوا اليه • ويمكن أن يقال : لأنه يعود فى كل عام •

---

(٢٣) انظر معجم مقاييس اللغة ٤/١٨١ •

(٢٤) البعال : وقاع النساء • والأيام المنهى عن صيامها هى : يوم الأضحى ، ويوم الفطر ، وأيام التشريق ، واليوم الذى يشك فيه من رمضان •

(٢٥) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ٣/٢٠٦ مؤسسة المعارف ــ بيروت ــ لبنان •

(٢٦) انظر مفردات الراغب ٣٦٤ •

وقد قيل أيضا ، أنه سمى بهذا الاسم ، لأن الناس قد اعتادوه(٢٧) .

ومن هنا ندرك الحكمة ، لم خص المريض بكلمة « عاد » دون « زار » . فى الحديث النبوى الشريف .

ومن الجدير بالذكر ، أن هذه الكلمة ، قد وردت فى الشعر العربى ، فمن ذلك ، قول الشاعر طرفة بن العبد(٢٨) .

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودى

وقول الشاعر النابغة الذبيانى(٢٩) :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها
نظر السقيم الى وجوه العود

وقول الشاعر مزرد بن ضرار الذبيانى(٣٠) :

ألا يا لقوم والسفاهة كاسمها
أعائدتى من حب سامى عوائدى

فهذه الكلمات : عودى ، العود ، عوائدى ، كلها مشتقة من الفعل « عود » بمعنى عاد المريض عند مرضه .

وأما الفعل « زار » ، وما يشتق منه ، فقد جاء التعبير النبوى به . فمن ذلك :

---

(٢٧) انظر معجم مقاييس اللغة ٤/١٨٣ .
(٢٨) شرح القصائد العشر للتبريزى ١٠٤ .
(٢٩) ديوان النابغة الذبيانى ـ تحقيق محمد أبو الفضل ٩٣ .
(٣٠) المفضليات ـ للمفضل الضبى ٧٥ .

١ ــ عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ « أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى • فأرصد الله له على مدرجته(٣١) ملكا • فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية • قال : هل لك عليه من نعمة تربها(٣٢) ؟ قال : لا غير أنى أحببته فى الله عز وجل •

قال : فانى رسول الله اليك ، بأن الله قد أحبك ، كما أحببته فيه »(٣٣) •

فالفعل « زار » ، وليس « عاد » ، هو المختار فى التعبير النبوى الشريف •

٢ ــ عن أبى هريرة ، قال : زار النبى ﷺ قبر أمه • فبكى وأبكى من حوله • فقال : « استأذنت ربى فى أن أستغفر لها ، فلم يؤذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها ، فأذن لى ، فزوروا القبور ، فانها تذكر الموت »(٣٤) •

ففعل الأمر « زوروا » ، وليس « عودوا » ، هو الذى وقع فى التعبير النبوى الشريف •

٣ ــ وعن ابن بريدة عن أبيه : قال : قال رسول الله ﷺ « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ••••• »(٣٥) •

---

(٣١) المدرجة : بفتح الميم والراء : الطريق الرسمى • سمى بذلك ، لأن الناس يدرجون عليها : أى يمضون ويمشون •

(٣٢) تربها : تملكها مصه وتستوفيها •

(٣٣) صحيح مسلم : ٨/٥٢٠ كتاب البر مع شرحه المسمى اكمال اكمال المعلم •

(٣٤) صحيح مسلم مع شرحه المسمى اكمال اكمال المعلم : ٣/٣٩٦

(٣٥) السابق : ٣/٣٩٦ •

فهنا قال عليه السلام : زوروها ولم يقل عودوها •

فزيارة القبور سنة ، ففيها العبرة والموعظة ، وأنها تذكر بالموت والآخـــرة •

فالفعل زار ، وما يشتق منه ، معناه فى اللغة(٣٦) : القصد • أى أنك تقصد شيئا ما • بمعنى تزوره وتتحول اليـــه بزورك • والزور هو أعلى الصدر •

فاذا أردت أن تزور انسانا أو غيره ، فانك تتلقاه بأعلى صدرك ، من أجل اكرامه واعزازه ، كما أن حروف الفعل « زور » أصل واحد ، يدل على معنى الميل والعـــدول ، فالزائر اذا زارك ، فانه قد عدل عن زيارة غيرك(٣٧) •

وقد جاء استخدام الفعـــل « زار » ، وما يشتق منه ، بكثرة فى حديث رسول الله ﷺ •

وعلى هذا الأساس ، جاءت الزيارة متنوعة • فمنها زيارة الأخ ، والأمراء ، والقبور كما هو وارد فى الأحاديث التى اختيرت للدراسة •

ومنها زيارة البيت(٣٨)،وزيارة المسجد الحرام ، وطواف الزيارة وزيارة الأماكن الدينية والتاريخية ، وزيارة مسجد قباء ، وزيارة الأقرباء والأصدقاء ، وزيارة المؤمنين بعضهم بعضا فى الجنة ، وكذلك زيارتهم الى الله سبحانه وتعالى فى الجنـــة • فعن أبى هريرة قال : أخبـــرنى

---

(٣٦) انظر تاج العروس : ٣/٣٤٥ وانظر الكليات : ٤٩٠ •

(٣٧) انظر معجم مقاييس اللغة : ٣/٣٦ •

(٣٨) انظر سنن ابن ماجة : ٢/١٨٩ •

رسول الله ﷺ قال : « ان أهل الجنة ، اذا دخلوها ، نزلوا فيها ، بفضل أعمالهم ، فيؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا ، فيزورون الله عز وجل »(٣٩) .

فمفهوم الزيارة اذن ، عام . يشمل أنواعا مختلفة من الزيارات. بينما الفعل « عاد » ، وما يشتق منه ، ليس له الا نوع خاص من الزيارة ، وهو عياد المرضى .

ومن الفروق أيضا بين الفعلين طول الامتداد الزمنى بمعنى أن وهذه احدى الفروق الرئيسية بينهما .

ومن الفروق أيضا بين الفعلين طول الامتداد الزمنى بمعنى أن الفعل « عاد » ، يكون امتداده مقصورا على عالم الدنيا . فليس له امتداد لعالم الآخرة ، كما هو الشأن فى الفعل « زار » .

وتفسير ذلك ، أن الفعل « عاد » ، يكون مقصورا على عيادة المريض فى الدنيا . فاذا انتهى العالم ، وقامت القيامة ، فلا يكون هناك مرضى ، ولا يكون هناك عواد ، يعودون مرضاهم . فالكلمة لا حظ لها فى عالم الآخرة ، اذ يندثر استعمالها ، ويبطل استخدامها .

بينما الفعل « زار » ، يمتد زمانيا الى عالم الآخرة ، فاستخدامه يبقى حيا لا يموت .

فهناك ، أهل الجنة ، يزورون بعضهم بعضا كما أنهم يزورون الله عز وجل ، حيث ورد ذلك فى الأحاديث الصحيحة(٤٠) .

---

(٣٩) سنن ابن ماجة : ٢/٤٥٦ تحقيق الاعظمى .

(٤٠) انظر سنن ابن ماجة : ٢/٤٥٦ تحقيق الأعظمى .

ومن الفروق أيضا بين الفعلين : أن الفعل « عاد » تلحظ فيه معنى الاكرار والرجوع • وتفسير ذلك ، أن عيادة المريض ، تكون متكررة بين الحين والآخر ، ليعلم حاله ، الا اذا رغب المريض عنها ، بسبب وضعه الصحى ، وسوء حاله •

أما الفعل « زار » ، ففيه معنى القصد ، وليس فيه معنى التكرار • ومعنى ذلك أن الزيارة ، قد تكون مرة واحدة فى العمر كالحج المفروض ، وقد تكون على فترات متباعدة ، كزيارة البيت الحرام لأداء العمرة ، أو زيارة المسجد النبوى الشريف ، أو زيارة الأماكن الدينية والتاريخية : كمسجد قباء ، وجبل أحد فى المدينة المنورة ، أو زيارة القبور ، أو زيارة الأصحاب والأقرباء ••• الخ •

لقد ذكرنا سابقا ، أن الفعل « عاد » بمعنى : عيادة المريض ، لم يرد استعماله فى القرآن الكريم مطلقا • بينما مادة الفعل «زار» ، قد ورد ذكره فى القرآن الكريم ، فى آية واحدة فقط ، وهى قوله تعالى : « ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر »(٤١) •

فالفعل « زرتم » ، جاء بصيغة الماضى • وهذا من باب تنزيل المستقبل ، منزلة الماضى(٤٢) ، لأنه فى هذه الحالة يفيد تحقق الوقوع ، وهذا مستخدم فى التعبير القرآنى الكريم ، كقوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه »(٤٣) •

---

(٤١) سورة التكاثر : الآيتان ١ ـ ٢

(٤٢) انظر تفسير التحرير والتنوير : ٣٠/٥٢٠ •

(٤٣) سورة النحل : آية ١ •

وجاء التعبير القرآنى ، بالفعـــل « زرتم »(٤٤) ، دون غيره من الألفاظ القريبة له فى المعنى ، مثل : سكنتم ، أقمتم ، صرتم ، رجعتم ، انتهيتم ... الخ ، لأنه يعطى ايحاء بقصر مدة الاقامة فى القبر • اذ أن مدة اللبث فيه بالنسبة الى الأبد(٤٥) ، أقل من لحظة(٤٦) • يشهد بذلك قوله تعالى : « كم لبثتم فى الأرض عـــدد سنين • قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم »(٤٧) •

فالفعـــل « زرتم » يفيـــد بأن الزيارة عابرة ، غير مســـتمرة • فالزائرون منصرفون ، غير مقيمين ، فى قبورهم ، فنزولهم فى القبور ، يعقبه خروج منها •

هذا الاحساس بعدم طول اللبث فى القبور ، دفـــع الأعرابى لأن يقول ، بعدما سمع الآية « زرتم المقابر » :

« بعث القـــوم للقيـــامة ، ورب الكعبـــة ، فان الزائر منصرف لا مقيم »(٤٨) •

بعد كل هذا ، فهل تكون كلمة « عاد » مرادفة لكلمة « زار » ؟ •

---

(٤٤) انظر التفسير البيانى للقرآن الكريم : ١/٢٠٠ •
(٤٥) الأبد : الدائم •
(٤٦) انظر غريب القرآن ، ورغائب الفرقان : ٣٠/١٦٧ •
(٤٧) سورة المؤمنون : آية ١١٣ •
(٤٨) المحرر الوجيز : ٥/٥١٨ •

## المبحـــث الثانـــى

## مناسبة الكلمة للسياق فى الحديث النبوى الشريف

### المـــوت ــ اليقين

لاختيار الكلمة أثر عظيم ، فى سياق الحديث النبوى الشريف • فالكلمات تشكل المواد الأولية فى العمل الأدبى الجميل ، اذا ما انتظمت بحسب صناعة النحـــو والبلاغة ، لأن هنـــاك صـــلة وطيدة بين اللفظ ومعنـــاه

فالكلمة فى المعجم شىء ، وفى الســـياق شىء آخر • اذ تكون فى الحالة الأولى ، جثـــة هامدة ، وفى الحالة الثانيـــــة ، تولد ولادة جديدة ، اذ يشع منها المعنى ، متألقا واضحا ، بســـبب تنســـيقها فى سياق خاص ، كما تنسق الورود والزهور ، فى الحديقة الغناء •

وهذا ملحوظ فى أحاديث الرسول ﷺ ، اذ نجد أن الســـياق ، يفرض كلمة معينة ، اذ لا يقبل غيرها ، لأنها تخدم المعنى وتجليه •

ولبيـــان ذلك نقف على بعض الأحاديث النبـــوية ، حيث نرى أن الكلمة تختار فى السياق بدقة متناهية لكى تؤدى المعنى المـــراد ، على أحسن وجه •

١ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من خير معاش »(١) الناس لهم : رجل ممســـك عنان فرســـه ، فى

---

(١) معاش : العيش والحياة •

سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة(٢) ، أو فزعة ، طار عليه ، يبتغي القتل والموت مظانة(٣) • أو رجل في غنيمة في رأس شعفة(٤) من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس الا في خير »(٥) •

لم اختار التعبير النبوي ، كلمتي : القتل والموت في جانب المجاهد في سبيل الله ، وكلمة اليقين ، بمعنى الموت ، في جانب الراعي العابد ؟ •

فهل كان لمجرد التنويع في الألفاظ ، حتى لا يكون هناك تكرار ؟ أم أنه لأمر آخر ، يتطلبه السياق ؟ •

جاء في لسان العرب : « اليقين : العلم وازاحة الشك ، وتحقيق الأمر • واليقين : نقيض الشك ••• واليقين : الموت »(٦) •

وأما في القرآن الكريم ، فقد جاءت كلمة « اليقين » بمعان أربعة على النحو الآتي(٧) :

---

(٢) هيعة : الصوت تفزع منه ، وتخافه من عدو ، هي الصوت للحرب •

(٣) موضعه •

(٤) شعفة كل شيء : أعلاه •

(٥) صحيح مسلم : ١٣/٣٤ ـ ٣٥ • وانظر سنن ابن ماجة : ٣/٣٧٤ ، الأعظمي مع اختلاف في اللفظ •

(٦) لسان العرب : ١٣/٤٥٧ مادة يقن •

(٧) انظر الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للدمغاني : ٥٠٤ •

١ ــ بمعنى الموت : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »(٨) •

وقوله تعالى : « وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين(٩) •

٢ ــ بمعنى الصدق والتصديق : قال تعالى : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين »(١٠) • أى بخبر صدق •

٣ ــ بمعنى العيان : قال تعالى : « ثم لترونها عين اليقين »(١١)

٤ ــ بمعنى العلم : قال تعالى : « ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا »(١٢) • أى ما قتلوه علما •

وقد جاءت كلمة : اليقين « فى القرآن الكريم مقرونة بالعلم تارة ، وبالعين والحق تارة أخرى ، حيث كان استخدامها فى السياق القرآنى ، فى موضع المضاف اليه • فمثال اقترانها بالعلم ، قوله تعالى : « كلا لو تعلمون علم اليقين »(١٣) •

ومثال اقترانها بالعين قوله تعالى : « ثم لترونها عين اليقين »(١٤) •

ومثال اقترانها بالحق ، قوله تعالى : « وان هذا لهو حق اليقين »(١٥) •

---

(٨) سورة الحجر : آية ٩٩ •
(٩) سورة المدثر : آية ٤٧ •
(١٠) سواة النحل : آية ٢٢ •
(١١) سورة التكاثر : آية ٧ •
(١٢) سورة النساء : آية ١٥٧ •
(١٣) سورة التكاثر : آية ٥ •
(١٤) سورة التكاثر : آية ٨ •
(١٥) سورة الواقعة : آية ٩٥ •

وقوله تعالى : « وانه لحق اليقين »(١٦) •

وقد فرق أهل العلم(١٧) ، بين علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين •

فعلم اليقين ، هو الخبر الصادق الذى لا يشك فى صدقه •

وعين اليقين ، هو الشـــىء الذى تشـــاهده عيانا ، أى أنك تراه بعينـــك •

وحق اليقين ، هو الشـــىء الذى تحس به ، عن طـــريق حواس اللمس والذوق ، والشم ، فعن طريقها يشعر الانسان ، بنعيم الشىء أو بجحيمه •

ويمكن أن نمثل لهذه المراتب الثلاثة على النحو الآتى :

علمنا الآن بأحوال الآخرة ، ومنها الجنة والنار ، علم يقين •

وأن مشاهدتهما عيانا يوم الآخرة ، عين يقين •

وأن الدخول فيهما ــ أى دخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار ــ فذلك هو حق اليقين(١٨) •

لقد ذكرنا سابقا ، أن من معانى « اليقين » : الموت •

وجاءت هذه التسمية ، لكون المـــوت ، وقوعه معلوما ويقينا عند جميـــع الناس ، أى يشـــمل المؤمن والكافر ، فلا يمارى فيه عاقـــل • واطلاق اليقين على الموت من باب التجوز(١٩) •

---

(١٦) سورة الحاقة : آية ٥١ •

(١٧) انظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : ٤٠٢/٥ •

(١٨) انظر السابق : ٤٠٢/٥ •

(١٩) انظر المحرر الوجيز : ٣٩٩/٥ •

وقد فسر بعض العلماء « اليقين » أيضا فى قوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »(٢٠) •

بمعنى اليقين المقطوع به الذى لاشك فيه ، وهو النصر الذى وعد الله به النبى ﷺ(٢١) •

وكذلك جاء اليقين بمعنى الموت ، فى قوله عليه السلام ، عند موت عثمان بن مظعون : « أما هو فقد جاءه اليقين »(٢٢) •

ففى الحديث السابق ، يخبرنا الرسول ﷺ عن نموذجين من الناس • فالأول ، مجاهد فى سبيل الله • والثانى : عابد منعزل عن الناس ، منقطع للعبادة • ونظرا لاختلاف النموذجين ، نرى كذلك ، أن الألفاظ قد اختلفت ، طبقا لطبيعة السياق ، حيث اختيرت كلمتا : القتل والموت الى جانب « المجاهد » ، كما اختيرت كلمة « اليقين » ، الى جانب « العابد » •

وعند التأمل الدقيق فى هذين السياقين :

رجل ممسك عنان فرسه •••• يبتغى القتل والموت مظانه •

أو رجل فى غنيمة ••• يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربه ، حتى يأتيه اليقين •••

يتبين لنا وجه التناسب والتناسق فى استخدام كلمتى : الموت واليقين •

---

(٢٠) سورة الحجر : آية ٩٩ •

(٢١) انظر المحرر الوجيز : ٣٧٦/٣ ، وانظر تفسير التحرير والتنوير : ٩٢/١٤ •

(٢٢) صحيح البخارى : ٧٦/٨ باب التعبير ، دار الفكر •

فالجو فى السياق الأول ، هو جو الجهاد فى سبيل الله ، وما يتطلبه من كر وفر ، ومنازلة واقتحام ، حيث يكون المجاهد ، معرضا للموت فى أية لحظة •

ولذلك تجده يتنقل فى ساحات الجهاد ، من مكان الى آخر ، على ظهر فرسه ، يطير على متنه طيرانا ، كناية عن شدة الحركة والسرعة ، لا يبالى بطريقة الموت ، سواء أكانت قتلا ، بسبب اصابته فى أرض المعركة ، أم كانت موتا طبيعيا ، فى أرض الحشد والجهاد والرباط •

هذا المجاهد الذى يبحث عن الموت فى مظانه — أى فى موضعه — ، ويجعل من الوصول اليه ، هدفا أسمى ، ومطلبا أعلى • فهو حريص على الموت ، بل يطلبه ، لأنه الجسر الذى يعبر من خلاله الى الفردوس الأعلى •

هذا المجاهد اذن ، لا يبالى بالقتل أو الموت • ومن هنا جاء السياق ، بذكر المصير ، صراحة المجاهد : القتل أو الموت ، وذلك لأن المجاهد فى سبيل الله ، لا يخشاهما ، بل يبحث عنهما فى مظانهما •

وأما الجو فى السياق الثانى ، فهو جو عبادة وتذلل وخشوع ، حيث اعتزل العابد الناس ، واختار لنفسه رعى الأغنام فى أعالى الجبال ، أو بطون الأودية •

هذا الجو يتناسب معه كلمة « اليقين » ، اذ ان العابد الخاشع ، لو ذكر له فى السياق كلمة « الموت » ، لاقشعر بدنه ، واهتزت فرائصه ، واضطربت أعصابه ، وهذا مما يؤثر على خشوعه وسجوده •

واذا جاءت كلمة « اليقين » ، موافقة للسياق تماما ، وأدت الغرض المقصود ، دون أن تحدث خوفا أو فزعا فى قلب العابد المتبتل ، خلافا لكلمة الموت — فلو ذكرت — لأدت الى رعبه وزعزعته ، واضطرابه ، ولأفسدت عليه لذة العبادة ، وصفاء الخشوع •

## الفـــاه الجـــوف

يتحدث رسول الله ﷺ عن المال ، وعن جشع الانسان فى جمعه وتحصيله ، حتى وصل به الطمع ، أنه لو كان له واد من مال ، لابتغى ثانيا • ولو أن له واديان ، لتمنى أن يكون له وادٍ ثالث •

ولكنه نسى فى غمرة ــ الجمع والكنز ــ مصـــيره الذى سيؤول اليه ، وهو القبر ، حيث يملأ جوفه وفمه التراب ، بعد ما كانا يمـــلآن بألذ أنواع الطعام والشراب •

والتعبـــير النبوى الشريف ، قمة فى الروعة والبيـــان والجمال ، فتجده يختار الكلمة المناسبة للسياق •

فاذا كان البيان النبوى ، يتحدث عن تمنى الانسان لواديين من المال ، فانه يختار كلمة « الفم » • واذا كان البيان النبوى ، يتحـــدث عن تمنى الانسان لأودية ثلاثة من المال فانه يختار كلمة « الجوف » • فما السر فى ذلك ؟ •

ولكى نقف على جمال الكلمات التى تناسب السياق ، يحسن أن نورد الحديثين الشريفين اللذين وردت فيهما كلمتـــا « الفـــم » و « الجوف » ، حيث نلتمس من خلالهما روعة البيان ، ودقة الاختيار ، وحسن الأداء •

١ ــ عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن رســـول الله ﷺ أنه قال : « لو كان لابن آدم واد من ذهب ، أحب أن له واديا آخر ، ولن يملأ فاه الا التراب • والله يتوب على من تاب »(١) •

---

(١) صحيح مسلم : ٣/٥٢٩ ، دار الكتب العلمية ، كتاب الزكاة •

٢ ــ وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من مال ، لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب • ويتوب الله على من تاب »(٢) •

يصور لنا الحديثان السابقان ، مشهدا مألوفا ، يتكرر فى كل زمان ومكان ، ذلك المشهد ، هو جشع الانسان وحرصه الشديد على جمع المال » •

ففى الحديث الأول : « لو كان لابن آدم واد من ذهب ، أحب أن له واديا آخر ، ولن يملأ فاه الا التراب ••• » •

نرى أنه ذكر ابن آدم والمقصود جنسه • فيشمل ، العربى والعجمى ونحو ذلك ، كما يشمل الرجل والمرأة على حد سواء •

وقد خصص فى هذا الحديث ، نوع المال ، وهو الذهب ، لكونه أفضل أنواع المال • فالقلوب دائما تتعلق به أكثر من غيره • والذى يلحظ على السياق النبوى ، أنه قد اختار كلمة « فاه » الى جانب ما يتمناه ابن آدم من واديين من الذهب • فما السر فى ذلك ؟ •

ان السر ، يكمن فى بلاغة الحديث ، فكلمة «فاه» ، قد اختيرت ــ والله أعلم ــ لأمرين :

أولهما : من حيث السعة • فعندما ذكر الواديان المملوآن بالذهب ، حسن أن يذكر معهما كلمة « الفم » ، لأنها تتناسب مع ذكر الواديين • فسعته للتراب أقل من سعة « الجوف » الذى سنتحدث عنه فيما بعد •

---

(٢) انسابق : ٣/٥٢٨ •

وهنا أسلوب تهكم وسخرية ، من الجنس الآدمى ، الذى يحرص على جمع المال ، بصورة غير شريفة • ثم لا يكون له من هذا الذهب ، الا التراب الذى يملأ فمه عندما يكون فى قبره • فعندئذ ينقطع طمعه وجشـــعه •

وثانيهما : من حيث اللذة •

فالفوه أصل بناء تأسيس الفم • تقول العرب : الفاه ، والفوه ، والفم ، كلها سواء ، والجمع أفواه(٣) ، وأفمام(٤) •

والفم(٥) : هو واحد الأفواه ، يكون للانسان ، ولكل حيـــوان : وهو عبـــارة عن وعاء يحتـــوى على أعضاء الكـــلام فى الانســـان ، والتصويت فى سائر الحيوانات المصونة • وله غطاء هما الشـــفتان ، وفائدتهما : المساعدة على الكـــلام ، وحبس اللعاب ، واعطاء الجمـــال للانسان والحيوان •

وتطلق العرب(٦) ، على أوائل الشىء : من أمكنة ، أو أنهار ، أو أزقة ، أودية ، اسم أفواه •

ومن هنا قيل : فاه للانسان ، لأنه أول شىء فيه • فالفم ، هو الطريق الحسى الذى تعبر من خلاله كل أنواع اللذائذ ، وما يتمناه الانسان الى جوفه وبطنه •

---

(٣) انظر لسان العرب : ١٣/٥٢٥ مادة فوه •

(٤) انظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : ٤/٢٢١ •

(٥) الكليات : ٦٩٦ •

(٦) لسان العرب : ١٣/٥٣٠ مادة : فوه •

فاذن ، هناك علاقة ، بين الذهب وفاه الانسان • فالاثنان يشتركان فى اللذة أى أن الانسان ، يتلذذ بجمع الذهب ، كما يتلذذ الفم ، بأنواع الطعام والشراب • والفم جزء من الانسان كما أن الذهب نوع من المال • ومن هنا كان التناسب الجميل ، ما بين ذكر الذهب والفم فى الحديث النبوى الشريف •

ولذا حذر الرسول ﷺ من خطورة هذا الفم • حيث سئل عن أكثر ما يدخل النار ؟ قال : « الأجوفان : الفم والفرج »(٧) • والسبب فى ذلك لأنه يحتوى على اللسان • فهو أداة جارحة ، تستعمل للخير ، كما أنها تستعمل للشر •

فهو علاوة على أنه وسيلة ، لتذوق الطعام والشراب ، حيث لولاه لما شعر الانسان بقيمة ما يأكل ويشرب ، فكذلك هو وسيلة للتلذذ • فكم من الناس يتلذذون بألسنتهم ، ويتفننون بأنواع الكلام ، فى شتم الناس وسبهم ، والطعن فيهم ، والنيل منهم ! •

— وفى الحديث الثانى ، نرى أن الرسول ﷺ يختار كلمة « الجوف » فى قوله عليه السلام : « لو كان لابن آدم واديان من مال ، لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب •••• » • فما السر فى ذلك ؟ • هذا ما سنعرفه بعد قليل ، بعون الله •

والحديث هنا كسابقه ، يذكر جنس ابن آدم ، الحريص على جمع المال ، من أى وجه كان ، سواء أكان عربيا أم أعجميا أم غير ذلك • أو غير ذلك • أو كان مؤمنا أو كافرا أو مشركا أو منافقا •

---

(٧) سنن ابن ماجة : ٤٣٧/٩ أبواب الزهد •

واذا كان الحديث السابق ، قد خصص نوع المال وهو « الذهب » لمناسبته للسياق ، فان هذا الحديث ، ينص على المال ، بشكل عام ، دون أن يحدد جنسه •

فالمال عام • يطلق على الذهب والفضة ، كما يطلق أيضا على كل شيء يملكه الانسان •

قال ابن الأثير : « المال في الأصل ، ما يملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان وأكثر ما يطلق المال عند العرب ، على الابل ، لأنها ، كانت أكثر أموالهم »(٨) •

والذى أراه ، أن « المال » فى هذا الحديث عام • جاء فى لسان العرب : « المال : ما ملكته من جميع الأشياء »(٩) مثل : الذهب ، والفضة ، والأغنام ، والابل ، والأبقار ، والأعيان ، •••• الخ • فالحديث النبوى الشريف ، يتناول الجنس الآدمى ، وليس الجنس العربى • فاذا كان المال يطلق عند العرب على الابل ، لأنها أكثر أموالهم ، فان المال عند الجنس العجمى غير ذلك • انه الذهب والفضة ، وما يملكون من أعيان •

فالمال اذن ، يتنوع الى صامت ، وناطق ، وعقار ، وركائز • جاء عن العرب قولهم فى المال : « فاذا كان ذهبا وفضة ، فهو صامت ، فاذا كان ابلا وغنما ، فهو ناطق ، واذا كان ضيعة ومستغلا ، فهو عقار ، واذا كان مدفونا ، فهو ركاز »(١٠) •

---

(٨) لسان العرب : ٦٣٥/١١ مادة مول ، وانظر تاج العروس : ١٢١/٨ فصل الميم باب اللام •

(٩) لسان العرب : ٦٣٥/١١ •

(١٠) فقه اللغة وسر العربية : ٥١ •

وقد سمى المال بهذا الاسم لكونه مائلا ، أى يميل القلوب اليه فتحبه النفس حبا شديدا ، مصداقا لقوله تعالى : « وتحبون المال حبا جما »(١١) .

ولكونه زائلا ، لا يبقى ، ولذلك يسمى عرضا(١٢) .

قال تعالى : « لو كان عرضا قريبا ، وسفرا قاصدا لاتبعوك ... »(١٣) .

فالعرض هنا ، هو المال والغنيمة(١٤) .

هذا الجنس الآدمى الجشع ، الحريص على جمع المال ، لا يكفيه واديان من مال ، بل تتطلع نفسه الى واد ثالث ، حتى ولو كان له واد ثالث ، فانه يتمنى أن يكون له رابع ، وهكذا . فالأمر اذن ، لا ينتهى عند حد معين ، بل انه يتمنى ويأمل ، الى أن ينقطع حرصه ، بملء جوفه بالتراب . وهنا نلحظ دقة الاختيار لهذه الكلمة ، لأنها جاءت مناسبة للسياق .

وقبل أن نتلمس السر فى اختيار هذه الكلمة ، فى سياق الحديث ، يحسن بنا أن نذكر المقصود من هذه الكلمة .

جاء فى لسان العرب : « جوف الانسان : بطنه . والجوف : باطن البطن . والجوف : ما انطبقت عليه الكتفان ، والعضدان ،

---

(١١) سورة الفجر : آية ٢٠ .
(١٢) انظر بصائر ذوى التمييز ٤/٥٤١ .
(١٣) سورة التوبة : آية ٤٢ .
(١٤) انظر المحرر الوجيز ٣/٣٨ .

والأضلاع ، والصقلان(١٥) وجمعها أجواف • وجوف كل شيء داخله • والجوف من الأرض : ما اتسع واطمأن ، فصار كالجوف • والجوف من الأرض أوسع من الشعب ، تسيل فيه التلاع والأودية »•

دلاء جوف : أى واسعة •

الأجوفان : البطن والفرج ، لاتساع أجوافهما »(١٦) •

ومن المجاز نقول : رجل أجوف ومجوف : أى جبان لا فؤاد له •

وأهلك الناس الأجوفان : البطن والفرج(١٧) •

يتبين مما سبق ، أن كلمة « الجوف » تدل على الاتساع من كل شيء •

وقد وردت كلمة « الجوف » فى القرآن الكريم • قال تعالى : ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »(١٨) •

بمعنى : باطن الانسان ، صدره وبطنه • ومن المعروف أن الجوف ، مقر الأعضاء الرئيسية فى الجسم ، ماعدا الدماغ(١٩) •

وقد ورد فى الحديث : « لا تنسوا الجوف وما وعى »(٢٠) •

---

(١٥) الصقلان : الخاصرتان •

(١٦) لسان العرب : ٩/٣٥ ، ٣٦ مادة جوف ، وانظر تاج العروس = ٦/٦٣ •

(١٧) انظر أساس البلاغة : ١٠٥ •

(١٨) سورة الأحزاب : آية ٤ •

(١٩) انظر التحرير والتنوير : ٢١/٢٥٦ •

(٢٠) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر : ١/٣١٦ •

ففى الحديث اشـــارة الى ما يدخل الجوف من طعام وشراب ، وعلى الانسان ألا ينسى • بمعنى أن يكون حريصـــا على اجتناب أكل الحـــرام •

وقد يكون المقصود بالجـــوف : البطن والفرج(٢١) ، لاتســـاع أجوافهما • فهما عنصران مهلكان للانسان • فالأول يكون هلاكه ناتجا عن الأكل الحرام • فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أتيت ليلة أسرى بى ، على قوم بطونهم كالبيوت ، فيها الحيـــات ترى من خارج بطونهم • فقلت : من هـــؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هـــؤلاء أكلة الـــربا »(٢٢) •

والثانى : يكون هلاكه للانسان ، عن طريق ارتكاب الفاحشة •

وقيل : الجـــوف : القلب • وما وعى : أى ما حفظ من معرفة الله تعالى(٢٣) • وهذا أبعد ما يكون ، أن يفسر الجوف بالقلب • فالقلب مكانه الجوف • وقد ذكرنا سابقا ، أنه مقر جميع الأعضاء الرئيسية فى الانسان ، ما عدا الدماغ •

أما السر فى اختيـــار كلمة « الجـــوف » ، فى الحديث النبوى الشريف ، فيعود الى مناسبتها للسياق • حيث لا تصلح كلمة أخرى ، أن تحل محلهـــا ، فى تأدية المعنى المقصـــود • فالجوف ، جـــزء من

---

(٢١) انظر السابق : ١/٣١٦ •

(٢٢) سنن ابن ماجه : ٢/٣١ •

(٢٣) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر : ١/٣١٦ •

الانسان ، وهو أوسع شىء فيه ، حيث يشمل البطن الذى يكون مركزا لشهوة الطعام والشراب •

فالحديث • يخاطب ابن آدم • وهؤلاء الأبناء ، مختلفون من حيث شهوة البطن • فمنهم من يأكل فى معى واحد ، ومنهم من يأكل فى سبعة أمعاء •

فعن أبى موسى ، قال : قال رسول الله ﷺ « المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »(٢٤) •

ومن المعروف ، أن الأمعاء ، موجودة فى جوف الانسان ، وأنها ، تقوم بتوصيل الطعام ، الى جميع أعضاء الجسم •

فاذا كان « الجوف » ، أوسع شىء فى الانسان — كما سبق — ، فانه قد ناسب ذكره مع الأودية الثلاثة ، لأنه يتسع لكمية من التراب ، أكثر من أى عضو أجوف آخر يكون فى الانسان •

ومن هنا ، فقد اختيرت كلمة « الجوف » لاتساعها ، لكى تتناسب مع سعة الأودية الثلاثة ، التى سوف تتسع الى كثير من المال •

كما أن ذكر الجوف أيضا ، يتناسب مع رغبة ابن آدم الشديدة ، فى جمع المال الكثير • هذا التناسب ، آت من أن الجوف ، هو المحل القلب • والقلب وحده هو الذى يرغب فى الحصول على المال ، وهو الذى يحب جمعه وكنزه ، كما أنه يحرص عليه ، وليس للجوف ، حظ من ذلك •

ويؤيد هذا ، قول الرسول ﷺ « قلب الشيخ شاب فى اثنتين :

---

(٢٤) سنن ابن ماجة : ٢/٢٣١ •

فى حب الحياة ، وكثرة المال »(٢٥) • فلفظة الشاب ، مستعارة لشدة الحرص وطول الأمل عند الشيخ الذى يمثل حقيقة ابن آدم فى حرصه على حب الحياة ، وكثرة المال • فالشاب ، يتمتع بطول العمر ، ودوام الاستمتاع بملذات الحياة ومسراتها ، فكذلك قلب الشيخ فانه يشبه قلب الشاب ، من هذا الجانب •

فالجوف اذا ذكر فى النص ، فانه يذكرنا بمعناه الحقيقى الحسى ، كما يذكرنا بالقلب الذى يكون حالا فيه •

فالجوف ، يملأ بالتراب ، وهو يتسع لكمية كثيرة منه ، تتناسب مع ذكر الأودية الثلاثة ، التى يتمناها ابن آدم •

وأما القلب المستقر فى الجوف ، فانه هو الذى يبتغى واديا ثالثا •

وهكذا نجد أن كلمة « الجوف » ، لابد منها فى السياق ، حتى تتناسب المعانى الجزئية الموجودة فى النص ، اذ تصور المعنى على أفضل وجه ، وأجمل بيان •

بقى أمر آخر جدير بالذكر ، وهو قوله عليه السلام فى الحديثين : « ولن يملأ فاه الا التراب » •

« ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب » •

فالأسلوب هنا فى الحديثين ، قصر • والقصر فى اللغة : الحصر والحبس • وقال بعضهم : هو فى اللغة عدم المجاوزة الى الغير • فهو من قصر الشىء على كذا ، اذا لم يتجاوز به الى غيره(٢٦) •

---

(٢٥) السابق : ٢/٤٣٤ •

(٢٦) الايضاح ، شروح التلخيص : ٢/١٦٦ •

وأما معناه فى اصطلاح البلغاء : « فهو تخصيص شىء بشىء ، أى تخصيص موصـــوف بصفة ، أو صـــفة بموصـــوف ، بطـــريق مخصوص »(٢٧) •

فالمقصور عليه : التراب • والتراب موقعه فى الجملة : فاعل • وكلمتا : فاه ، وجوف ، موقعهما فى الجملة مفعـــول به • فهنا من باب تقديم المفعول به على الفاعل • وفى هـــذه الحالة من التقديم ، يكون التركيز على الفاعل • فيكون المعنى : ان التراب وحده ، هو الذى يملأ الفم أو الجوف ، وليس غيره من الأجناس الأخرى •

ولو قيل : « ولن يملأ التراب الا فاه » •

« ولا يملأ التراب الا جوف ابن آدم » •

لفهم من هذا الكلام ، ان الفم أو الجوف ، قد يملآن بالتراب ، وقد يملآن بغيره ، كالدود مثلا •

فالحديث الشريف ، قد قصر الفم أو الجوف على التراب • وهذا من قصر الموصوف على الصفة • بمعنى أن هذه الصـــفة ( التراب ) ، قد ثبتت للموصوفين وهما : الفم والجوف •

واذا كان ذكر التراب ، مقصـــودا فى النص • فما الحـــكمة من ذلك ؟ •

لعل الحكمة من ذكر « التراب » فى الحديث النبوى الشريف هو التذكير بخلق الانسان من تراب ، ثم اعادته فيها ، واخـــراجه منها ،

---

(٢٧) مواهب الفتاح ، شروح التلخيص : ١٦٦/٢ •

ليوم البعث والحساب • قال تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى »(٢٨) •

فالانسان مهما ملك من الأموال ، فان مصيره سيكون الى التراب •

ومن جهة أخرى ، فان التراب ، يذكر بأمنية الكافر يوم القيامة ، كما يذكر بأمنية الخائفين من المؤمنين •

قال تعالى : « ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا »(٢٩) •

يقول ابن عطية فى تفسير الآية : « قيل ان هـذا تمن أن يكون شيئا حقيرا ، لا يحاسب ولا يلتفت اليه • وهذا نجده فى الخائفين من المؤمنين • فقـد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنـه : ليتنى كنت بغـرة »(٣٠) •

كما يذكر التراب بحقارة ما يوضع فى أفواههم وجوفهم وهـو التراب ، بعد ما كانت تمتلىء بأصناف الطعام والشراب •

وقـد عرف عن العرب ، أنهم اذا استحقروا شـيئا نسبوه الى التراب ، فقالوا : « أحقر من التراب »(٣١) •

كما يذكر التراب أيضا بمدى خيبة الحريصين على جمع المـال وخسارتهم • فها هى ذى الأفواه والجوف تمتلىء بالتراب • فيا لها من خيبة ، ويا لها من خسـارة • مثلهم فى ذلـك ، كمثل الطالب المردود

---

(٢٨) سورة طه : آية ٥٥ •

(٢٩) سورة النبأ : آية ٤٠ •

(٣٠) المحرر الوجيز : ٥/٤٢٩ •

(٣١) سوائر الأمثال على أفعل : ١١٢ •

الخائب ، حيث تقول العرب : لم يحصل فى كفه غير التراب(٣٢) ، وكذلك هم ، لم يحصلوا من جمع المال وكنزه الا التراب .

وقد فسر بعض العلماء(٣٣) ، قول الرسول ﷺ : « اذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب »(٣٤) بالخيبة .

فالتراب اذن ، من معانيه : الخيبة . فالذى يحصل على التراب ، انما يحصل على الخيبة ، ليس غير . ويؤيد هذا قول العرب : تربت يداك . بمعنى خابت وخسرت(٣٥) .

حقا ان الانسان فى خسر . والخاسر هو من يكد فى جمع المال ، ويحرص عليه أشد الحرص ، ولا يعطيه حقه من زكاة أو صدقة ، بل انه لا يكترث ان أخذه من حرام ، أو وضعه فى حرام ، فالأمر لديه سواء .

عجبا أنه يفعل ذلك ، وهو يعلم — انه فى نهاية المطاف — سيترك هذا المال الى ورثته . فهم المستفيدون الحقيقيون من جمع المال وكنزه .

مثله فى ذلك ، كمثل دودة القز التى تنفع غيرها ، وتضر نفسها .

فقد جاء عن بعض الحكماء ، أنهم قد مثلوا ابن آدم بدود القز فقالوا : « لا يزال ينسج على نفسه بجهله ، حتى لا يكون له مخلص ، ويقتل نفسه ، ويصير القز لغيره . وربما قتلوه اذا فرغ من نسجه ، لأن القز يلتف عليه ، فيروم الخروج منه فيشمس ، وربما غمز بالأيدى

---

(٣٢) انظر لسان العرب : ١/٢٢٧ مادة ترب .
(٣٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر : ١/٣٣٩ .
(٣٤) صحيح مسلم : ٩/٤٦٩ ، دار الكتب العلمية — بيروت .
(٣٥) انظر أساس البلاغة : ٦١ .

حتى يموت ، لئلا يقطع القز ، ويخرج القز صحيحا • فهذه صورة الكسب الجاهل الذى يترك أهله وماله ، فينعم ورثته بما يشقى به • فان أطاعوا به كان اجره لهم ، وحسابه عليه ، وان عصوا به كان شريكهم فى المعصية ، لأنه أكسبهم اياها به • فلا يدرى أى الحسرتين عليه أعظم : اذهابه عمره لغيره ، أو نظره الى ماله فى ميزان غيره ؟ »(٣٦) •

وقد أشار أبو الفتوح السنى لهذا المعنى فقال(٣٧) :

ألم تر أن المرء طول حياته
معنى بأمر لا يزال يعالجه
كذلك دود القز ينسج دائما
ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

ومع كل هذا ، فان باب التوبة مفتوح لمن أراد أن يتوب • فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال : « ان الله عز وجل ، ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر »(٣٨) •

ولهذا نرى أن الحديثين الشريفين ، قد ذيلا بالتوبة ، وهو قوله عليه السلام : « والله يتوب على من تاب » •

ومفهوم التوبة فى الشرع هو : « ترك الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك

---

(٣٦) معترك الأقران : ٢/٥٢٨ •
(٣٧) السابق : ٢/٥٢٩ •
(٣٨) سنن ابن ماجة : ٢/٤٣٨ •

من الأعمال بالاعادة • فمتى اجتمعت هـذه الأربع ، فقد كمل شرائط التوبة »(٣٩) •

وأصـــل « تاب » عاد الى الله ، وتاب عليـه : أى عاد عليـه بالمغفرة(٤٠) •

والذى يلحظ أن الفعل « يتوب » قد عدى بحرف الجر « على » ، وهذا يدل على معنى قبول التوبة عند الله عز وجل (٤١) •

كما يفيد حرف الجر « على » ، معنى العلو والاستعلاء(٤٢) • وهـذا يفيد أن التوبة آتية من الأعلى ، أى من عند الله عز وجل ، فهو صاحب الشأن والأمر • فان شاء قبل التوبة ، وان لم يشأ ، ردها الى صاحبها لأنه قد أخل بشرط من شروط التوبة ، التى مر ذكرها •

وهكذا نجد أن كلمـة الفاه والجوف ، لا تستخدم فى الحـديث النبوى الشريف ، الا فى المكان المنـاسب ، حيث يتطلبهما السياق ، للافصاح عن المعنى المراد •

---

(٣٩) مفردات الراغب : ٧٢ •

(٤٠) لسان العرب : ١/٢٣٣ مادة توب •

(٤١) انظر الكليات : ٣٠٨ •

(٤٢) انظـــر كتاب معانى الحروف للرمانى : ١٠٨ ، تحقيق : د• عبد الفتاح شلبى ، دار الشروق ، طبعة ثالثة : ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م•

## الأبوان ــ الوالدان

جاء التعبير النبوى ، بكلمة « الأبوين » حينا ، وبكلمة «الوالدين» ، حينا آخر ، وهذا يدل على أن كل كلمة فى الحديث النبوى الشريف ، تقع فى مكانها المناسب •

لقد جاءت كلمة « الأبوين » ، فى أحاديث الرسول ﷺ ، حيث لا يحسن أن نستخدم بدلاً منها كلمة « الوالدين » ، ولو فعلنا ذلك ، لاختلف المعنى ، وابتعدنا عن مقصود الكلام • فمن ذلك :

١ ــ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مواود يولد على الملة(١) ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يشركانه » • قيل يا رسول الله ! فمن هلك قبل ذلك ؟ قال : « الله أعلم بما كانوا عاملين به »(٢) •

ــ وجاء فى رواية أخرى على الفطرة • عن أبى هريرة أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ(٣) : « ما من مولود الا يولد على الفطرة(٤)••كما تنتج البهيمة • بهيمة جمعاء(٥) • هل تحسون فيها من جدعاء(٦) » •

---

(١) الملة : الشريعة والدين •

(٢) صحيح الترمذى بشرح العربى المالكى : ٣٠٣/٨ أبواب القدر •

(٣) صحيح مسلم : ٣٢/٩ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان •

(٤) الفطرة : قيل العهد الذى أخذ على ابناء آدم وهم فى ظهور آبائهم وقيل : ان المقصود بالفطرة ، هو كون الآدمى خلق قابلا للهداية ، ولديه الاستعداد والتهيء لها •

(٥) جمعاء : مجتمعة سالمة من العيوب •

(٦) جدعاء : الجدع هو قطع الأذن ، وهذا يكون بعد الولادة •

٢ ــ وعن عائشــة قالت : لمــا نزلت : « وان كنتن تردن الله ورسوله » دخل على رسول الله ﷺ فقال : « يا عائشة ! انى ذاكر لك أمرا • فلا عليك أن تعجلى فيه ، حتى تستأمرى أبويك » •

قالت : قــد • علم والله أن أبوى لم يكونا ليأمرانى بفــراقه • قالت : فقرأ على : « يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها »(٧) الآيات •

فقلت : فى هــذا استأمر أبوى ! قد اخترت الله ورسوله(٨) •

ففى الحديث الأول ، جاء التعبير النبوى بكلمة « أبويه » دون « والديه » ، فما السر فى ذلك ؟

وقبل الاجابة عن هــذا السؤال ، لابد أن نعرف المقصود بكلمــة الأبوين •

جاء فى لسان العرب : الأبوان : الأب والأم(٩) •

وقال الراغب : « ويسمى العم مع الأب : أبوين • وكذلك الأم مع الأب ، وكذلك الجد مع الأب »(١٠) •

والأب : هو الوالد • ويسمى كل من كان سببا فى ايجاد شىء ، أو اصلاحه أو ظهوره : أبا •

---

(٧) سورة الأحزاب : آية ٢٨ •
(٨) سنن ابن ماجة : ١/٣٧٩ •
(٩) لسان العرب : ١٤/٧ مادة أبى •
(١٠) مفردات الراغب : ٥٦٩ •

وقد ورد معنى الأب فى القرآن الكريم على أوجه أربعة(١١) •

الأول : بمعنى الجد • قال تعالى : « ملة أبيكم ابراهيم »(١٢) أى بمعنى جـدكم •

الثانى : بمعنى العـم • قال تعـالى : « وإله آبائك ابراهيـم واسماعيل واسحاق الاها واحـدا »(١٣) • ومن المعروف أن اسماعيل عليه السلام ، لم يكن من آبائه ، وانما كان عمه •

الثالث : بمعنى الوالـد • قال تعـالى : « يا أبت افعـل مـا تؤمر »(١٤) •

الرابع : بمعنى المرعى • قال تعـالى : « وفاكهـة وأبا »(١٥) بتشديد الباء •

ففى الحديث الأول ، جاء التعبـير ، بكلمة « الأبوين » ، دون « الوالدين » ، كما هو واضح فى نص الحديث • والواقع أن سياق الحديث ، هو الذى يطلب الكلمة المناسبة ، حفاظا على المعنى المقصود •

فلو نظرنا الى معنى الحديث العام ، لوجدناه يتحدث عن المولود الصغير الناشىء ، الذى يولد على الملة ، أو على الفطرة ، كما فى رواية الحديث الآخر الذى يليه •

وتعنى الملـة ، الانتماء الى شريعـة ودين • والفطرة تعنى أن المولود عنده القابلية للهداية ، وانما الذى يدفعه عنها هما الأبوان •

---

(١١) انظر بصائر ذوى التمييز : ٢/١١٤ •
(١٢) سورة الحج : آية ٧٨ •
(١٣) سورة البقرة : آية ١٣٣ •
(١٤) سورة الصافات : آية ١٠٢ • (١٥) سورة عبس : آية ٣١ •

وقيل : ان الفطرة هى العهد الذى أخذ على بنى آدم • وهم فى ظهور آبائهم مصداقا لقوله تعالى : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ، ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة ، انا كنا عن هـذا غافلين • أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعـدهم ، أفتهلكنا بمـا فعـل المبطلون »(١٦) •

فالحديث يركز على الجانب العقدى فى المولود • وهنا يأتى دور الأبوين ، فى التربية والتوجيه ، وغرس العقيدة ، التى هى أهم شىء فى كيان الانسان • فعليها تتوقف حياة المولود فى المستقبل • فان صلحت ، صلح سائر عمله ، وان فسدت ، فسد سائر عمله •

فاذن ، جاءت كلمة « الأبوين » ، فى مكانها المناسب ، حيث غلب جانب الأب على جانب الأم •

والتغليب ، ذكره علماء النحو والبلاغة فى كتبهم • وقالوا فى تعريفه : « والتغليب : هو ترجيح أحد المعلومين ، على الآخـر ، فى اطلاق لفظة عليهما • وبالجملة • فالتغليب مجاز مرسل علاقته الجزلية أو المصاحبة ، أو من قبيل عموم المجاز »(١٧) •

وقال ابن هشام فى مغنى اللبيب : « أنهم يغلبـون على الشىء ما لغيره ، لتناسب بينهما ، أو اختلاط •••• فلهذا قالوا : « الأبوين » ، فى الأب والأم»(١٨) •

---

(١٦) سورة الأعراف آية ١٧٢ ـ ١٧٣ •

(١٧) حاشية الدسوقى على شرح السعد/شروح التلخيص : ٢/٥١ •

(١٨) مغنى اللبيب : ٧٦٤ •

وقال المحسبى : « واعلم أنه يغلب أحد المتجاورين والمتشابهين على الآخر ، بأن يجعل الآخر ، مسمى باســمه ادعاء ، ثم يثنى ذلك الاسم ، قصدا اليهما جميعا »(١٩) .

فنلحــظ مما ســبق ، أن من شرط التغليب بين الاســمين ، أن يكون بينهما تناسب ، أو تجاوز ، أو تشابه .

وقد بين العلماء ، العلة من وقوع التغليب فى كلام العرب . فقد ذكروا أن الأسمين ، يغلب أحدهما على الآخر لأسباب عدة منها :

ـ تغليب المذكر .
ـ تغليب المتكلم على المخاطب .
ـ تغليب المخاطب على الغائب .
ـ تغليب العاقل على غيره .
ـ تغليب المتصف بالشىء على ما لم يتصف به .
ـ تغليب الأكثر على الأقل .
ـ تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا الجنس .
ـ تغليب الموجود على ما لم يوجد .
ـ تغليب الاســلام .
ـ تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه .
ـ تغليب الأشهر ، والأشرف(٢٠) .

---

(١٩) جنى الجنتين فى تمييز المثنيين : ١١٧ ـ تحقيق لجنة احيـاء التراث العربى ـ منشورات دار الآفاق ـ بيروت . ط ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
(٢٠) البرهان فى علوم القرآن : ٣/٣٠٢ ، ٣١٢ .

ـ تغليب الأخف على الأثقل(٢١) .

ـ تغليب أحد المعلومين على الآخر(٢٢) .

ـ تغليب الأدنى على الأقل وبالعكس(٢٣) .

ـ تغليب ما يتطلبه سياق الكلام .

فالتغليب بشتى صوره وأنواعه ، لا ينفصل عن واقع السياق ، بأى حال من الأحوال .

فكلمة « الأبوين » ، فى الحديث الشريف ، فيها تغليب ، أى غلب الأب على الأم ، أو بعبارة أخرى ، غلب جانب الذكورة على الأنوثة ، لأن الذكر أهم من الأنثى ، وان شئت قلت : غلب الأعلى على الأدنى ، لأن الرجال قوامون على النساء ، انطلاقا من قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء »(٢٤) .

فهل يكتفى بهذا القول من التغليب ؟

ان البلاغة ، تنظر الى التغليب ، من خلال السياق . فلا يغلب شىء على آخر ، الا والسياق يتطلب ذلك ، بل يفرضه ويطلبه .

فكلمة « الأبوين » ، جاءت فى الحديث النبوى الشريف ، مناسبة للسياق تماما . ولو قيل بدلا منها كلمة « الوالدين » مثلا « فوالداه

---

(٢١) انظر اصلاح المنطق لابن السكيت : ٤٠٠ .

(٢٢) حاشية الدسوقى على شرح السعد/شروح التلخيص : ٢/٥١ .

(٢٣) انظر شروح التلخيص : ٤/٤٧٣ .

(٢٤) سورة النساء : آية ٣٤ .

يهودانه وينصرانه ويمجسانه» لاختل المعنى،وانحط الكلام عن درجة الفصاحة والبلاغة •

أليست كلمة « الوالدين » تغليبا ، كما هو الشأن فى كلمة الأبوين ؟

الجواب : بلى •

ولكن لماذا آثر التعبير النبوى الشريف ، كلمة « الأبوين » دون « الوالدين » ؟

والجواب عن ذلك : أن كلمة « الأبوين » ، جاءت فى سياق الكلام ، الذى يتحدث عن العقيدة ، وغرس المبادىء فى المولود • فالمقام هنا ، مقام عقائد • وهذه العقائد مختلفة • فمنها ما هو اسلامى ، ومنها ما هو نصرانى ، أو يهودى ، أو مجوسى ، أو شركى •

فالأب هو صاحب الدور الرئيسى فى هذه العملية • فهو الذى يختار الزوجة أولا • والأب ، هو صاحب السلطة فى الأسرة ، والأب هو المسؤول عن تربية الأولاد ، وتوجيههم ، وغرس الدين والشريعة فيهم • والأب ، هو الذى بيده الطلاق(٢٥) ، حيث يستطيع أن يفارق

---

(٢٥) جاء فى فقه السنة لسيد سابق : ٢/٣٨٣ : الذى دون فى الشريعة عند اليهود وجرى عليه العمل ، أن الطلاق يباح بغير عذر • والطلاق فى المذاهب المسيحية على النحو الآتى :

ـ المذهب الكاثوليكى : يحرم الطلاق تحريما باتا •

ـ والمذهبان : الآرثوذكى والبروتوستنتى ، يبيحان الطلاق فى بعض حالات محدودة • من أهمها الخيانة الزوجية •

زوجته ، ان رأى منها خطـرا على عقيـدة أولاده ، أو على تربيتهم وسلوكهم •

وقبل هـذا كله ، هو الذى يختار العقيدة لنفسـه ، وهو الذى يحدد موقفه منهـا •

لهذه الأسباب وغيرها ، نجد أن التعبير النبوى الشريف ، قـد اختار كلمة « الأبوين » ، لأنها تناسب السياق ، وتصور المعنى ، على أكمل وجـه وبيـان •

وفى الحديث الثانى ، جاء التعبير النبوى بكلمة « أبويك » وذلك فى قول الرسول ﷺ لعائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ : « يا عائشة ! انى ذاكر لك أمرا • فـلا عليـك أن لا تعجلى فيـه ، حتى تستأمرى أبويك » •

فالرسول ﷺ قد آثر كلمة « أبويك » على كلمة « والديك » ، فما السر فى ذلك ؟

ان موضوع الحديث ، مهم جدا ، جاء بعد قوله تعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا • وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما »(٢٦) •

وقد اختلف العلماء فى سبب هـذه الآية • فمنهم من قال : انه وقع بين أزواجه ـ ﷺ ـ تغاير ، مما شقى هو به • ومنهم من قال : ان أزواجه ، سألنه الزيادة فى النفقة ، بعـد أن فتح الله عليه أرض بنى النضير ، حيث كانت أموالهم خالصة لرسول الله ﷺ •

---

(٢٦) سورة الأحزاب : آية ٢٨ ـ ٢٩ •

ومنهم من قال : ان أزواجه ، طلبن منه ثيـــابا وملابس ، وقالت احداهن : لو كنا عند غير النبى ، لكان لنا حلى ومتاع •

ومنهم من قال : ان الرسول ﷺ قد أمر بتلاوتها على زوجاته ، ثم يخيرهن بين الدنيا والآخرة • وأما أمر الطلاق ، فهو مرجا ، حيث لو اخترن أنفسهن ، لنظر رسول الله ﷺ فى كيفية تسريحهن • وليس فى الآية ، تخييرهن فى الطلاق •

ومنهم من قال : بل هى آية تخيـــير ، فاخترنه ، ولم يعـــد ذلك طلاقا • وهذا قول عائشة أيضا(٢٧) •

هـــذه هى أهم التفاسير ، التى جاءت فى سبب هـــذه الآية •

اذن ، موضوع الحديث ، يتعلق بالطلاق ، وهو يأتى فى اللغـــة على معنيين : أحدهما : بمعنى حل عقدة النكاح ، والآخر ، يأتى بمعنى التخلية والارسال(٢٨) •

وأما فى الشرع ، فمعناه : « حل رابطة الزواج ، وانهاء العلاقة الزوجية »(٢٩) •

ان الاسلام ، يحرص على دوام العلاقة الزوجيـــة ، فهى رباط

---

(٢٧) انظر المحرر الوجيز ٤/٣٨٠ ، وانظر تفسير التحرير والتنوير ٢١/٣١٤ •

(٢٨) انظر لسان العرب : ١٠/٢٢٦ مادة طلق •

(٢٩) فقه السنة : سيد سابق : ٢/٣٧٩ •

مقدس ، بين الزوجين ، حيث لا يجوز العبث بهذا الرباط الا لضرورة شرعية • وقد سمى الله عز وجل ، هـذا العهد بين الزوجين ، بالميثاق الغليظ • قال تعالى : « وأخذن منكم ميثاقا غليظا »(٣٠) •

ومن هنا ، ندرك السر ، فى اختيار كلمة « الأبوين » ، على كلمة « الوالدين » • فى الحديث النبوى الشريف •

فالأمر ، يحتاج الى اتخاذ قرار فى الطلاق ، له أبعاده النفسية والاجتماعية ، وآثاره السيئة على المجتمع ، ولذا طلب عليه السلام ، من زوجته عائشة ، أن لا تتعجل فى الأمر ، بل عليها أن تستأمر أبويها فى هـذا الموضوع الصعب • ولذا غلب جانب الأبوة ، لأن الأب هو صاحب القرار • فهو الولى الذى زوج ، وهو الولى كذلك فى أخذ الاذن ، والرأى منه •

فطبيعة السياق ، هى التى فرضت كلمة « الأبوين » فالمعنى يريدها ، ولا يريد غيرها ، ومن هنا جاءت كلمة « الأبوين » فى مكانها المناسب •

واذا كان التعبير النبوى الشريف ، قد استخدم كلمة « الأبوين » — كما مر بنا سابقا — ، فانه قد استخدم كلمة « الوالدين » ، لأمر بلاغى كذلك

فمما جاء من ذلك :

١ — عن عبد الله قال : سألت النبى ﷺ ،أى العمل أحب الى الله؟

---

(٣٠) سورة النساء : آية ٢١ •

قال : «الصلاة على وقتها » قال : ثم أى ؟ قال : « ثم بر الوالدين » • قال : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »(٣١) •

٢ ــ وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أحدثكم بأكبر الكبائر » قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : « الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين » قال وجلس ، وكان متكئا فقال : « وشهادة الزو ، أو قول الزور » ، فما زال رسول الله ﷺ يقولها ، حتى قلنا ليته سكت(٣٢) •

ففى الحديث الأول ، وقع التعبير بكلمة « الوالدين » ، دون « الأبوين » ، فما السر فى ذلك ؟

ان كلمة « الوالدين » ، تعنى : الوالد ( الأب ) ، والوالدة ( الأم ) •

فالوالد الحقيقى ، هى الأم ، وليس الأب • وانما يقال : « والد » على أسلوب التغليب ، حيث لا تذكر كلمة « والد » ، الا مع « الأم » « الوالدة » •

فكلمة « الوالدين » ، يشم منها ، تغليب جانب الأنوثة ، على جانب الذكورة(٣٣) •

فالحديث يشير الى « بر الوالدين » ، أى الى بر الوالد ، والوالدة

---

(٣١) صحيح البخارى : ٥/٢٢٢٧ تحقيق د• مصطفى ذيب ــ دار القلم ــ دمشق ــ بيروت •

(٣٢) صحيح الترمذى ٨/٩٧ بشرح العربى المالكى •

(٣٣) انظر خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية : ١/٢٨٦ •

وهذان اللفظان ، يذكران الانسان بولادته ، يوم أن كان طفلا رضيعا ، حيث كان آنذاك ، بحاجة الى بر والديه ، وعطفهما عليه ، الى أن يبلغ رشـــده ، ويستوى عوده •

كما يذكر لفظ « الوالدين » ، بتغليب جانب الأنوثة على الذكورة • بمعنى أن « الوالدة » الأم ، هى التى تحتاج الى البر ، أكثر مما يحتاج اليـــه الوالد « الأب » ، وذلك بسبب ضعفها ، وقلة حيلتها ، وتألق عاطفتها •

فماذا تفعل الوالدة ، لو لم يكن الابن بارا بها ، محســـنا اليها • بعكس « الوالد » « الأب » ، الذى عنده من الطرق والوسائل ، ما يجبر ابنه على البر ، الذى من أهم أنواعه النفقة عليه •

ومن هنا ، نجد أن كلمـــة « الوالدين » ، تعطى من الدلالة على المعنى ، ما لا تعطيه كلمة « الأبوين » • فالسياق اذن ، يناسبه كلمة « الوالدين » ، لأنها هى الأدق فى تصوير المعنى المقصود •

وقد أكد الرسول ﷺ على بر الوالدة لأنها هى الجانب الأضعف ، حيث جعل لها من البر ، أكثر مما جعـــله للأب •

فعن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : جاء رجل الى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ! نبئنى بأحق الناس منى بحسن الصحبة ؟ فقال : « نعم وأبيك ! لتنبأن • « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « ثم أمك » • قال : ثم من ؟ قال « أبوك » (٣٤) •

وفى حديث آخر عن أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول الله ! من

---

(٣٤) سنن ابن ماجة : ٢/١١٥ •

أبر ؟ قال : « أمك » • قال : ثم من ؟ قال : « أمك » • قال : ثم من ؟ قال : « أبوك » • قال : ثم من ؟ قال : « ثم الأدنى فالأدنى »(٣٥) •

ففى هـذين الحديثين الشريفين ، قد قدمت الأم على الأب من ناحية تفضيلها فى البر ، وذلك لما تعانى الأم ، من الحمل ، والوضع ، والإرضاع ، والخدمة والتربية •

وهـذا ملحوظ أيضا ، فى كتاب الله عز وجل ، حيث ان التعبير القرآنى ، جاء بكلمة « الوالدين » ، فى مقام الاحسان اليهما ، أو فى مقام التوصية بالمعروف بحقهما • حيث غلب جانب الأنوثة ، على جانب الذكورة ، لأن الوالدة هى أشد ما تكون بحاجة الى الاحسان ، والتوصية بحقها ، من « الوالد » ، وان كان الأمر ، مراعى فيه الاحسان الى الطرفين الوالد والوالدة •

ففى مقام الاحسان الى الوالدين ، يقول الله عز وجل : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا »(٣٦) •

وفى مقام التوصية بحق الوالدين ، يقول سبحانه وتعالى : « ووصينا الانسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن »(٣٧) •

وفى الحديث الثانى ، جاء التعبير النبوى بكلمة « الوالدين » ، الى جانب العقوق لحالة الوالدة • فتغليب جانب الأنوثة فى مقام العقوق ، ملحوظ فيه ضعف الوالدة •

---

(٣٥) السابق : ٢/٣٠٨ •

(٣٦) سورة الاسراء : آية ٢٣ •

(٣٧) سورة لقمان : آية ١٤ •

وقد شـــدد الرسول ﷺ على عقوق الأم ، حيث جـــاءت بعض الأحاديث ، تتحدث عن عقوق الأمهات ، بصفة منفردة عن الأب •

فعن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ قال : « ان الله عز وجل ، حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعا وهات • وكره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المـــال »(٣٨) •

فيشير هـــذا الحديث ، الى حرمة عقوق الأمهات ، فهى آكد من حرمة عقوق الآباء •

قال ابن الأثير : « وانما خص الأمهات ، وان كان عقوق الآباء وغيرهم من ذوى الحقـــوق عظيمـــا ، فلعقـــوق الأمهـــات مزية فى القبـــح »(٣٩) •

والعقوق : ضده البر • وأصله من العق : الشق والقطع • يقال : عق والده ، يعقه عقا ، وعقوقا ومعقة : شق عصا طاعته • وعق والديه : قطعهما ، ولم يصل رحمه منهما • وقد يعم بلفـــظ العقوق جميـــع الرحـــم(٤٠) •

وقد ضرب العرب المثل ، بعقوق الضب ، حيث قالوا : « أعق من ضب » ، ويريدون به الأنثى • وعقوقها أنها تأكل أولادها • فالضبة اذا باضت ، تقوم بحراسة بيضها من ورل(٤١) وحية وغيرهما • فاذا

---

(٣٨) صحيح مسلم : ٦/٢٣٨ مع شرحه المسمى اكمال اكمال المعلم

(٣٩) النهاية فى غريب الحديث والاثر ٣/٢٧٧ •

(٤٠) انظر لسان العرب : ١٠/٢٥٦ مادة عقق •

(٤١) ورل : دابة تشبه الضب •

خرجت أولادها من البيض ، ظنتها شيئا يريد بيضها ، فتثب عليها ، ولا ينجو من أولادها الا الشرير (٤٢) .

لقد شددت الأحاديث النبوية ، على بشاعة عقوق الوالدين . ففي حديث الكبائر — الذي مر ذكره — نجد أن الرسول ﷺ ، قد جعل منزلة عقوق الوالدين ، بعد الاشراك بالله . وهذا يدل على شدة التحريم .

فاذا كانت الأمور اليسيرة ، قد عدها الفقهاء والعلماء من العقوق، مثل : ما ورد .

— عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : « ابكاء الوالدين من العقوق » .

— وعن عمرو بن الزبير قال : « ما بر أبويه من أحد النظر اليهما » .

— وعن محمد بن سيرين قال : « من مشى بين يدى أبيه ، فقد عقه ، الا أن يمشى ، يميط الأذى عن طريقه . ومن دعا أباه باسمه ، قد عقه ، الا أن يقول : يا أبت » .

— وعن مجاهد قال : « لا ينبغى للولد ، أن يدفع يد والده ، اذا ضربه . ومن شد النظر الى والده ، لم يبرهما ، ومن ادخل عليهما ما يحزنهما فقد عقهما » .

---

(٤٢) انظر سوائر الأمثال على أفعل : ٢٦٨ ، وانظر لسان العرب : ١٠/٢٥٦ .

ـ وعن يزيد بن أبى حبيب : « ايجـاب الحجـة على الوالدين عقوق » يعنى الانتصار عليهما فى الكلام(٤٣) •

أقول : اذا كانت هـذه الأمور اليسيرة تعد من العقوق ، فمـا بالك بمن آذاهما ، وعصاهما ، وخرج عليهما ، ولم يصلهما ؟ • بـل أهانهما ، وأذلهما ، وشتمهما ! •

واذا كان العقوق من الولد قبيحا ، فان العقوق من البنت يكون أقبح ، لأنها كانت موضع الحنان والعطف والرعاية من قبل الوالدين •

كما أن العقوق ، غير متوقع من جهتها • فأشـد وقعا على نفس الانسان ، أن يأتيه الأذى والشر ، من جهة يأمل منها الخير والمعروف •

وهكذا نجد أن كلمـة « الوالدين » ، لها مكانها المنـاسب فى الاستعمال • وكذلك كلمـة « الأبوين » ، حيث لا يصـلح استخدام احداهما مكان الأخرى ، لأن سياق الكلام ، هو الذى يحـدد الكلمة المطلوبة ، لكى تناسب واقع الحال ، وطبيعة المقام •

---

(٤٣) بر الوالدين لابن الجوزي البغدادى : ٦٦ •

# المصـــادر والراجـع


١ ــ ارشاد الساري لشرح صـحيح البخاري ــ لشـهاب الدين القسطلاني وبهامشه صحيح مسلم بشرح النووي ــ دار احياء التراث العربي ــ بيروت ــ لبنان •

٢ ــ أساس البلاغة ــ للزمخشري ــ دار بيروت للطبـاعة والنشر ودار صادر ــ ط ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م •

٣ ــ اصلاح المنطق ــ لابن السكيت ــ ت ــ أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ــ دار المعارف ــ مصر ــ ط (٣) ١٩٧٠م•

٤ ــ الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ــ د• عائشـة عبد الرحمن ــ دار المعارف ــ ط (٢) •

٥ ــ الايضاح في علوم البلاغة ــ للخطيب القزويني بشرح وتعليق د• محمد عبد المنعم خفاجي ــ دار الكتاب اللبناني ــ ط (٤) ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م •

٦ ــ البرهان في علوم القرآن ــ لبـدر الدين الزركشي ــ ت ــ محمد أبو الفضل ابراهيم ــ دار المعرفة للطبـاعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ ط (٢) ١٣٩١هـ ــ ١٩٧٢م •

٧ ــ بر الوالدين ــ لابن الجوزي البغدادي ــ ت ــ محمد عبد القادر أحمد عطا ــ مؤسسة الكتب الثقـافية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط (١) ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م •

٨ ــ تاج العروس من جواهر القاموس ــ محمد مرتضى الزبيدي ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ لبنان ــ ط (١) سنة ١٣٠٦هـ ــ المطبعة الخيرية ــ مصر •

٩ ـ تاريخ الجاهلية ـ د٠ عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ ط (٢) ـ ١٩٨٤م ٠

١٠ ـ الترادف فى اللغة ـ حاكم مالك العيبى ـ دار الرشيد للنشر ـ بغداد ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ٠

١١ ـ التفسير البيانى للقرآن الكريم ـ د٠ عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف ـ ط (٣) ٠

١٢ ـ تفسير التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر ٠

١٣ ـ جامع الدروس العربية ـ مصطفى الغلاييني ـ ط (١١) ـ ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م ـ المطبعة العصرية للطباعة والنشر ـ صيدا ـ لبنان ٠

١٤ ـ جدلية الحرف العربى وفيزيائية الفكر والمادة ـ محمد عنبر ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط (١) ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م ٠

١٥ ـ جنى الجنتين فى تمييز نوعى المثنيين ، لابن محمد المحسبى ـ دار الآفاق الجديدة ـ تحقيق لجنة التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة ط (١) ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٢م ٠

١٦ ـ الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية ـ د٠ محمد خير هيكل ـ دار البيارق ـ ط (١) ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ٠

١٧ ـ الحقول الدلالية الصرفية للأفعال العربية ـ سليمان فياض ـ دار المريخ للنشر ـ الرياض ٠

١٨ ـ خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية ـ د٠ عبد العظيم ابراهيم المطعنى ـ مكتبة وهبة ـ ط (١) ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ٠

١٩ ـ ديوان النابغة الذبيانى ـ ت/ محمد أبو الفضل ابراهيم ـ ط (٣) ـ دار المعارف ٠

٢٠ ــ ديوان امرىء القيس ــ ت/ محمد أبو الفضل ابراهيم ــ ط (٤) ــ دار المعارف •

٢١ ــ زاد المعاد فى هدى خير العباد ــ لابن قيم الجوزية ــ ت/ شعيب الأرنؤوط وعبد القادر ــ مؤسسة الرسالة ــ مكتبة المنار الاسلامية ــ ط (٧) ــ ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م •

٢٢ ــ سنن ابن ماجة ــ ت/ محمد مصطفى الأعظمى ــ ط (٢) ــ ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م ــ شركة الطباعة العربية السعودية •

٢٣ ــ سنن أبى داود ــ للحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى ــ دراسة كمال يوسف الحوت ــ دار الجنان ــ بيروت ــ ط (١) ــ ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٨م •

٢٤ ــ سنن النسائى ــ بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الامام السندى ــ اعتناء وترقيم : عبد الفتاح أبو غدة ــ دار البشائر الاسلامية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط (٢) ــ ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٨م •

٢٥ ــ سوائر الأمثال على أفعل ــ حمزة بن الحسن الأصفهانى ت/ د• فهمى سعد ــ عالم الكتب ــ بيروت ــ ط (١) ــ ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٨م •

٢٦ ــ شرح ديوان الأعشى الكبير ــ ميمون بن قيس ــ تقديم : د• حنا نصر ــ دار الكتاب العربى ــ بيروت ــ ط (١) ــ ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م •

٢٧ ــ شرح ديوان عنترة ــ الخطيب التبريزى ــ تقديم : مجيد طراد ــ دار الكتاب العربى ــ بيروت ــ ط (١) ــ ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م •

٢٨ ــ شرح شعر زهير بن أبي سلمى ــ لأبي العباس ثعلب • ت/ د• فخر الدين قباوة ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ــ ط (١) ــ ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م •

٢٩ ــ شرح القصائد العشر ــ للتبريزي ــ ضبط وتصحيح : عبد السلام الحوفي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط (١) ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م •

٣٠ ــ شروح التلخيص ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ــ مصر •

٣١ ــ شعر عمرو بن معد يكرب ــ جمع مطابع الطرابيشي ــ مكتبة المؤيد ــ الرياض ــ ومكتبة دار البيان ــ دمشق ــ ط (٣) ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م •

٣٢ ــ الشعر والشعراء ــ لابن قتيبة ــ دار صادر ــ مطبعة بريل ــ سنة ١٩٠٢م •

٣٣ ــ صحيح البخاري ــ لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ــ ضبط وترقيم ــ د• مصطفى ديب البغا ــ دار القلم ــ دمشق ــ بيروت ــ دار الامام البخاري ــ دمشق ــ ط (١) ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م •

٣٤ ــ صحيح الترمذي ــ بشرح ابن العربي المالكي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت •

٣٥ ــ صحيح سنن الترمذي باختصار السند ــ تأليف محمد ناصر الدين الألباني ــ مكتب التربية العربي لدول الخليج ــ ط (١) ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م ــ المكتب الاسلامي في بيروت •

٣٦ ــ صحيح مسلم ــ لأبي الحسين مسلم بن الحجاج ــ دار احياء الكتب العربية ــ ت/ محمد فؤاد عبد الباقي ــ ط (١) ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م ــ عيسى البابي الحلبي وشركاه •

٣٧ ــ صحيح مسلم المسمى اكمال اكمال المعلم لمحمد بن خليفة وشرحه المسمى اكمال الاكمال للسنوسى ــ ضبط وتصحيح : محمد سالم هاشم ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت لبنان ــ ط (١) ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م .

٣٨ ــ العبودية ــ لابن تيمية ــ المكتب الاسلامى ــ بيروت ــ دمشق ــ ط (٥) ١٣٩٩هـ ــ بيروت .

٣٩ ــ عمدة القارىء شرح صحيح البخارى ــ للعينى ــ دار الفكر .

٤٠ ــ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ــ للنيسابورى ــ ت/ ابراهيم عطوة عوض ــ شركة مكتبة ومطبعة البابى الحلبى وأولاده بمصر ــ ط (١) ١٣٨١هـ ــ ١٩٦٢م .

٤١ ــ فتح البارى بشرح صحيح الامام البخارى ــ للامام أحمد بن على بن حجر العسقلانى ــ مكتبة الرياض الحديثة ــ الرياض ــ محمد فؤاد عبد الباقى وعبد العزيز بن عبد الله بن باز .

٤٢ ــ فقه السنة ــ السيد سابق ــ مكتبة الخدمات الحديثة ــ جدة ــ دار القبلة للثقافة الاسلامية ــ جدة .

٤٣ ــ فقه اللغة وسر العربية ــ للثعالبى .

٤٤ ــ قاموس القرآن أو اصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم ــ لابن محمد الدامغانى ــ ت / عبد العزيز سيد الأهل ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان ــ ط (٥) ١٩٨٥ م .

٤٥ ــ القاموس المحيط ــ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى دار الجيل ــ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان .

٤٦ ــ كتاب معانى الحروف ــ لعلى بن عيسى الرمانى ــ ت / د ٠ عبد الفتاح اسماعيل شلبى ــ دار الشروق ــ جدة ــ السعودية ــ ط (٣) ١٤٥٤ هـ ــ ١٩٨٤ م ٠

٤٧ ــ الكليات ــ لأبى البقاء الكوفى ــ د ٠ عدنان درويش محمد المصرى ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ٠

٤٨ ــ كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق ــ لعبد الرؤوف المناوى ضمن كتاب الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ــ للسيوطى ــ ط (٤) ــ دار الكتب العلمية ٠

٤٩ ــ لسان العرب ــ لابن منظور ــ دار صادر ــ بيروت ٠

٥٠ ــ مجمع الأمثال ــ للميدانى ــ ت / محمد محيى الدين عبد الحميد ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لبنان ٠

٥١ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ــ للهيثمى ــ مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ ١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦ م ٠

٥٢ ــ المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ــ لابن عطية الأندلسى ــ ت / عبد السلام عبد الشافى محمد ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط (١) ١٤١٣ هـ ــ ١٩٩٣ م ٠

٥٣ ــ المخصص ــ لابن سيده ــ دار الفكر ــ بيروت ــ ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٩٣ م ٠

٥٤ ــ المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ــ للسيوطى ــ شرح وضبط : محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، على البجاوى ــ دار التراث ــ القاهرة ــ ط (٣) ٠

٥٥ ــ معاوية بن أبى سفيان وعصره ــ عمر أبو النصر ــ منشورات المكتبة الأهلية ــ بيروت ــ ط (١) ١٩٦٢ م ٠

٥٦ ــ المعجم الكبير ــ للطبرانى ــ ت / حمدى عبد المجيد ــ مكتبة ابن تيمية ــ القاهرة ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٣ م ٠

٥٧ ــ معجم مفردات ألفاظ القرآن ــ للراغب الأصفهانى ــ ت / نديم مرعشلى ــ دار الكتاب العربى ٠

٥٨ ــ معجم مقاييس اللغة ــ لأحمد بن فارس ــ ت / عبد السلام محمد هارون ــ مكتبة الخانجى ــ مصر ــ ط (٣) ــ ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨١ م ٠

٥٩ ــ مغنى اللبيب عن كتاب الأعاريب ــ لجمال الدين بن هشام الأنصارى ــ ت / د ٠ مازن المبارك ، محمد على حمد الله ، دار الفكر ــ ط (٢) ــ ١٩٦٩ م ٠

٦٠ ــ المفضليات ــ للمفضل بن محمد يعلى الضبى ــ ت / أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ــ دار المعارف ــ ط (٦) ٠

٦١ ــ النهاية فى غريب الحديث والأثر ــ لابن الأثير ــ دار الفكر ــ ت / طاهر أحمد الزاوى ، ومحمود محمد الطناحى ٠